رجال ونساء
نزل فيهم قرآن

تأليف
محمد إسماعيل الجاويش

دار الغد الجديد

تأليف
محمد الجاويش

دار الغد الجديد

مقدمة

في أيامنا يقال عن الرجل إذا أسهم في عمل بارز : أنه دخل التاريخ ، بمعنى أنه : خلد ذكره ، وستأتي أجيال تذكر اسمه ؛ ولذلك يوجد كثير من الناس الذين يجدّون في البحث عن فرص تتيح لهم تحقيق هذا الهدف بدافع من حب البقاء والخلود . . .

وإنه لأمر طيب أن نتذكر سيرة من خلّدتهم أعمالهم ، ولكن هناك رجال قضى الله عز وجل أن يكتب لهم الخلود الأكرم والذكر الأطيب حين ذكرهم أو تحدث عنهم في كتابه الكريم ؛ إذ أن القرآن كلام الله ، وأي شرف أسمى ، وأي منزلة من أن يُذكر الرجل في الملأ الأعلى ، وأن يكون ذاكره هو الله عز وجل ، وأن يُسجَّل في اللوح المحفوظ ، وأن يتنزل إلى السماء الدنيا ثم يأتي به جبريل عليه السلام إلى رسولنا ﷺ ، فيتلقاه عنه المسلمون ، ثم تردده الملايين إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها ؛ لأن الله سبحانه ضمن خلود القرآن الكريم ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ؛ فهذا حقًا هو التكريم الذي لا يدانيه تكريم . . .

وفي القرآن الكريم صحابي واحد يُذكر بالاسم هو : زيد بن الحارثة ﷺ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ، لكن هناك العديد من الرجال ارتبطت وقائع وتشريعات بأشخاصهم ، وعُرف ذلك من خلال معرفة الإطار التاريخي لفترة نزول القرآن الكريم ، ومن خلال التعرف على أسباب نزول الآيات ، وإدراك الملابسات التي أحاطت بهذا النزول وهذه التشريعات ، وتردد هذا في كتب التفسير والفقه، ورأيت أن تقديم هؤلاء الرجال في سياق الآيات يزيد القارئ فهمًا لآيات الذكر الحكيم ، ويزيدنا أيضًا معرفة بأقدار هؤلاء الرجال الذين كتب الله لهم الخلود في كتابه القرآن ؛ إذ أنه إذا كان سبحانه ، قد ذكرهم فإنه يكون قد قضى أن نشرف نحن بذكرهم ، ومدارسة سيرهم .

ومجموعــة الرجال الكرام الذين ورد الحديث عنهم عاصروا فــترة نزول القرآن الكريم لذلك لا نتعرض هنا لرجال آخرين ورد ذكرهم أو الإشــارة إليهم في فترات سابقة ، نلتقي للحديث عنهم في أعمال قادمة . .

والله الهادي إلى سواء السبيل ..

* * *

حكايات رجال
ارتبطت بهم أحكام

الإسلام والتبني

زيد بن حارثة ﷺ

زيد بن حارثة ﷺ كان أسير حرب قبل أن يعتقه رسول الله ﷺ .. غنمه بعض العرب في حربهم وباعوه لحكيم بن حزام الذي وهبه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد ﷺ، والتي وهبته بعد ذلك لزوجها محمد بن عبد الله ﷺ ، فكان من أوائل المسلمين . . .

ولقد تلاشت في ظل الإسلام الفوارق بين الناس ، وأحس بذلك زيد ﷺ لاسيما من خلال معاملة رسول الله ﷺ له ؛ إذ هو كان قد حرره وألحقه بنفسه ، وجعله ابنًا له كعادة العرب في ذلك الحين ، وذلك بعد أن رفض ﷺ أن يعود مع أبيه بعد أن عرفه ، وفضل أن يبقى مع رسول الله ﷺ عبدًا ، فكان أن كافأه رسول الله ﷺ على وفائه وإخلاصه ، ولازم زيد ﷺ رسول الله ﷺ، ونال احترامه وحبه ، فكان يقال له : زيد ابن محمد ويقال : زيد حِبُّ رسول الله ﷺ . . .

ولهذا كله حدثته نفسه أن يطلب يد واحدة من كريمات قريش هي السيدة زينب بنت جحش ﷺ التي تمثل « الأرستقراطية » القرشية ؛ إذ هي عقيلة بني هاشم وبنت عمة رسول الله ﷺ ، فاتجه إلى رسول الله ﷺ قائلاً : اخطب عليّ يا رسول الله ، ويسأله ﷺ عمّن يريدها ، فيقول ﷺ : زينب بنت جحش يا رسول الله . .

فيقول ﷺ : « أيْ زَيْدُ . . . لَسْتُ أرَاهَا تَقْبَلُ فَاخْطُبْ عَليَّ أُخْرَى أُزَوِّجْكَ بِهَا » لكن زيدًا يعود بعد أيام إلى عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو الآخر ابن خال السيدة زينب ﷺ مستعينًا به كي يطلبها معه من رسول الله ﷺ .

فيكلف رسول الله ﷺ عليًا كرّم الله وجهه أن يتوجه إليها فتردّ عليه في مرارة وحزن: يا عليّ .. أتزوّج أيم قريش من عبد رقيق ؟!

وعلم رسول الله ﷺ أن الأقارب من قريش ما زالت تتعلق نفوسهم بمفاخر الجاهلية والتباهي بها ، فأرسل ﷺ مَن يقول : « لَقَدْ رَضِيتُهُ لَكُمْ وَأَرْضَى بِأَنْ تَنْكِحُوه » . .

ونزل الوحي مؤيدًا حكمه ﷺ ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

[الأحزاب: ٣٦] . فقالت زينب ، وقال أهلها : رضينا يا رسول الله . .

وقدّم رسول الله ﷺ لزيد رضي الله عنه عشرة دنانير وإزارًا وخمسين مُدًّا من الطعام وعشرة أمداد من التمر كي يكون صداقًا لزينب رضي الله عنها ،كما ولم الولائم ، وأطعم المساكين لحمًا وخبزًا ، لكن بعد فترة عاشها زيد مع زينب رضي الله عنها شعر أنه ينبغي فراقها ؛ إذا هي تستشعر في نفسها أنها أفضل منه ، وهي ما زالت فيها معاني الفخر بالأصول ، وأدرك أنها ستظل معه معتقدة أنها القرشية الشريفة ، وأنه الرقيق الغريب في قريش بلا نسب أو حسب . .

وطلب من رسول الله ﷺ أن يطلقها ،ويرد الرسول ﷺ : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، ويعود بعذابه إلى رسول الله ﷺ يطلب مرة ثانية أن يطلقها ، ويسمع ما سمعه في المرة الأولى :﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ لكن زيدًا يطلقها ، وينزل الوحي من السماء موضحًا أن ما حدث كان بمشيئة الله سبحانه وتدبيره : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧]. . .

لكن ما الذي أخفاه الرسول ﷺ وأبداه الله سبحانه ؟

إنها مشيئة الله سبحانه وحكمه وتدبيره في أن يتزوج رسول الله ﷺ من زينب رضي الله عنها بعد طلاقها من زيد رضي الله عنه حتى يقضي على ما كان سائدًا في الجاهلية من فوارق طبقية وقبلية ، وكي يرسّخ مبادئ الإسلام في المساواة بين الناس جميعًا ، وكي يحقق هدفًا آخر هو أن يرسخ بين العرب أن الابن بالتبني لا يكون ابنًا وأنه دَعِيّ والدَّعِيُّ لا يكون له حقوق الابن الحقيقي ، فلا يحمل اسم مَن تبناه ولا يرثه ، وفي الوقت نفسه ، فإن المتبني له أن يتزوج امرأته إذا طلقها أو مات عنها ، ولذلك عاد زيد رضي الله عنه إلى اسمه الحقيقي ؛إذ صار زيد بن حارثة بدلاً من زيد بن محمد ، وتأكيدًا لذلك جاء أمر الله أن يتزوج رسول الله ﷺ من مطلّقه زيد رضي الله عنه ، يقول عز وجل :﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧، ٣٨].

* * *

أول مَن تيمم

الأسلع بن شريك رضي الله عنه

كان الصحابي الأسلع بن شريك رضي الله عنه يقوم بخدمة رسول الله ﷺ ؛ إذ كان يُرَحِّل له ناقته « يُعدها كي يركبها الرسول ﷺ بأن يضع عليها الرحل » ، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم : « يَا أَسْلَعُ ..قُمْ فَأَرْحِلْ » . .

فقال له : يَا رَسُولَ اللهِ . . أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَمْ أَغْتَسِلْ بِالماءِ البَارِدِ فَأَمُوتُ أَوْ أَمْرَضُ . .

ولم يردّ عليه رسول الله ﷺ ؛ وذلك أن ذلك الصباح الباكر الذي أصدر فيه رسول الله ﷺ أمره إلى الصحابي الجليل كان يعقب ليلة شديدة البرد . .

وبعد مدة جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ بآية الصعيد : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٤٣] .

فنادى رسول الله ﷺ : « قُم يَا أَسْلَعُ فَتَيَمَّم » ، ثم بيّن له رسول الله ﷺ كيف يتيمم وأراه ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين ، وقام الأسلع بن شريك رضي الله عنه ، فتيمم ثم رحّل لرسول الله ﷺ ، ومن بعده تيمم المسلمون ، وكان الأسلع أول من تيمم .

* * *

اللّعان

هلال بن أمية

ذهب هلال بن أمية ﷺ عشاء إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي وَجَدتُ شُرَيْكَ بنَ سَحْمَاءَ عِنْدَ أَهْلِي فَرَأَيْتُ بِعَيني وَسَمِعتُ بِأُذُنِي ، فقال ﷺ : «البَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِك » . . .

قال هلال ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ . . إِذَا رَأَى أَحَدُنَا رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِهِ يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ البَيِّنَةَ .

فأعاد رسول الله ﷺ قوله : « يَا هِلالُ . . البَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِك » .

فيقول هلال ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ . . وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ وَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ . .

وإذ يحاول هلال ﷺ أن يستمر في الحديث مدافعًا عن نفسه معبرًا عما يقاسيه في نفسه من مرارة ؛ إذ كيف يجتمع عليه مرارة ما يعانيه من آلام مبعثها ما شاهده بعينه ، وما سمعه بأذنه ثم يُحدُّ في ظهره التفت إليه أحد الصحابة بعد أن رأى رسول الله ﷺ ، ثم قال لهلال ﷺ: اسْكُتْ يَا هِلالُ ؛ إِنَّ الوَحْيَ يَتَنَزَّلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ . .

وفرغ جبريل عليه السلام من قراءة الوحي على رسول الله ﷺ ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى هلال ﷺ قائلاً : « أَبْشِرْ يَا هِلالُ ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا » ثم تلى قول الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور : ٦ ـ ٩].

وحمد هلال بن أمية ﷺ ربه أن أنجاه اليوم وأكرمه ، ويحمده مرة ثانية حين ينجيه ويكرمه يوم أن تخلّف عن السير في غزوة تبوك مع زميليه كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع » فقاطعهم المسلمون خمسين ليلة حتى أكرمهم الله سبحانه بوحيه الكريم » وقَبِل سبحانه توبتهم .

* * *

الظهار

أوس بن الصامت رضي الله عنه

« أَنْتَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي » .. كلمات قليلات أطلقها أوس بن الصامت رضي الله عنه على زوجته خويلة بنت ثعلبة رضي الله عنها في فورة غضب جامحة ، فكان وقعها عليها أليمًا عنيفًا ، أصابتها بالذهول والحيرة ، كما أصابتها بالحزن والأسى ..

إنها تدرك أن معناها الفراق ، وتدرك أن الفراق ينهي ما كان بينهما من روابط المحبة ، وحسن المعاشرة ، وصلات القربى ، والسكن ، أي ينهدم بيت ويتشتت أبناء وتُحرم من السكن ومن العائل ..

وأفاقت من صدمتها ، ومن حيرتها لتجد أوسًا رضي الله عنه هو الآخر في حيرته وذهوله ، لقد وجدت تساؤلاً حزينًا يتردد في أعماقها : ماذا دهاك يا أوس ؟!

وأوس رضي الله عنه يُطرق خجلاً ويكتم غيظًا ، ويستمع هو الآخر إلى صدى أعماقه ، وفيها تساؤل يتردد : ماذا فعلتَ يا أوس ؟!

وكلاهما يتساءل ويتساءل ويتساءل : هل انتهى الأمر ؟ هل انتهى الماضي كله بسبب كلمات قد لا يدريها قائلها ، ولا يقصد ما أدت إليه ؟!

ولكن الأمل لاح في الأفق القائم ؛ إنه رسول الله ﷺ ، وذهبت إليه خويلة رضي الله عنها ، وقالت له : يَا رَسُولَ اللهِ .. أَوْسُ بنُ الصَّامِتِ أَبُو وَلَدِي وَأَحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَقَدْ تَزَوَّجَنِي وَأَنَا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، شَابَّةٌ مَرْغُوبَةٌ ذَاتَ مَالٍ وَأَهْلٍ ، دَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ ، وَقَالَ :أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ،بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مَالِي وَأَفْنَى شَبَابِي ، وَتَفَرَّقَ أَهْلِي ، وَكَبِرَتْ سِنِّي وَنَثَرتَ مِنْهُ بَطْنِي صِبْيَةً صِغَارًا ، إِنْ تَرَكْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا ، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا ، فَهَلْ تَجِدُ لِي يَا رَسُولَ اللهِ رُخْصَةً تُنْعِشُنِي وَإِيَّاه ؟

ولكنه ﷺ يقول لها : « مَا أَرَاكِ إِلاَّ قَدْ حُرِّمْتِ عَلَيْهِ » ..

وتجادله خويلة ، فيعيد ما سمعته ، فتقول : لا تَقُلْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، واللهِ .. وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مَا ذَكَرَ طَلاَقًا ..

لكنه ﷺ يقول : « ما أَرَاكِ إِلاَّ حُرِّمْتِ عَلَيْهِ ،وَإِنْ أُمِرْتُ بشَيء لاَ أُغَمِّمْهُ عَلَيْك » . .

وتستمر في جدالها إلى أن يتنزل قول الله عز وجل - وهي بحضرة رسول الله ﷺ :

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة : ٢].

وتمر العاصفة التي هبت على بيت أوس بن ثابت رضي الله عنه بسلام ،ويكون ما قاله أوس رضي الله عنه سبيلا إلى تقرير حكم هام من أحكام الإسلام هو حكم الظهار .

* * *

ميراث البنات

أوس بن ثابت رضي الله عنه

تُوُفِّيَ أوس بن ثابت رضي الله عنه ولم يترك ذكورًا ، فقام ابنا عمه سويد وعرفجة رضي الله عنهما وأخذا ما تركه من مال ، وتركا الزوجه وبناتها يقاسين الفقر والحاجة ، ولم يكن ما فعله الرجلان بالأمر الذي يثير دهشة إذ أن ذلك كان عادة الجاهلية ؛ إذ كانوا يحرمون الإناث من الميراث ، فإذا مات الرجل تاركا إناثًا دون الذكور ، فإنهن لا يرثن ، وإنما تصبح التركة من حق الأقارب ؛ ذلك أن العرب كانت تقول : لا يُعطي إلا مَن قاتَل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة . . .

وإذا كان ذلك التصرف لا يثير دهشة في عصر ما قبل الإسلام الذي سادت فيه مفاهيم ظالمة ، وقاسية ، فإنه في ظل عدالة الإسلام قد أثار دهشة ، أم كحة ، زوج أوس رضي الله عنه ، وأثار أشجانها ؛ إذ أنها لا تستطيع أن تتخيل أن تخسر زوجها وراعيها وراعي أولادها ، وأن تخسر أيضًا ما تركه من مال ينبغي أن يكون معينًا لها في مواجهة صعوبات الحياة ، وهي المرأة العاجزة عن كسب قوتها ، وقوت بناتها العاجزات بدورهن عن ذلك ، وقدّرت المرأة أنه إذا كانت الجاهلية قد سوّغت ذلك ، فإن الإسلام لا يسوّغ ظلمًا ، وقدّرت المرأة أن الإسلام لا يُقرّ أن يأخذ الرجال الأقوياء مال البنات الضعيفات الحزينات لفراق الآباء ، وإنما قدّرت أنه ينبغي أن يكون الرجال في عونهن في حزنهن ، وفقرهن . .

لذلك ذهبت أم كحة زوج أوس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، وقالت : يَا رَسُولَ اللهِ . . إنْ أَوْسَ بنَ ثَابت قَدْ مَاتَ وَتَرَكَ لِي بَنَات وَأَنَا امْرَأَةٌ لَيْسَ عِنْدِي مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِنَّ ، وَقَدْ تَرَكَ أَبُوهُنَّ مَالاً حَسَنًا ، وَهُوَ عِنْدَ سُوَيْدَ وَعَرفجةَ ابْنَي عمه ، وَلَمْ يُعْطِيَانِي ولاَ بَنَاتِهِ شَيْئًا مِنَ المَالِ ، هُنَّ فِي حِجْرِي ، ولاَ يُطْعِمَانِي ولاَ يَسْقِيَانِي ولاَ يَرْفَعَانِ لَهُنَّ رَأسا . .

ودعا رسول الله ﷺ سويدًا وعرفجة رضي الله عنهما وسألهما رأيهما في قول أم كحة رضي الله عنها فقالا : يَا رَسُولَ اللهِ . . وَلَدُهَا لاَ يَرْكَبُ فَرَسًا ولاَ يَحْمِلُ كَلاً ولاَ يُنْكِي عَدُوًا . .

فقال ﷺ : « انْصَرِفُوا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِيهِنَّ » . .

وانصرفوا جميعا ، ولم يطل الانتظار ؛ فقد نزلت رحمه الله بالضعيفات حكمًا عادلاً يحقق لهن العدل والأمان . . ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ . .

وهكذا كانت وفاة أوس بن ثابت سبيلاً إلى رحمة الله بالنساء ؛ إذ كانت سببًا في تقرير مبدأ يحقق لهن العدل والإنصاف .

* * *

لا يتزوج الابن زوجة أبيه

أبو قيس بن الأسلت رضي الله عنه

حين تُوفِّي إلى رحمة الله أبو قيس بن الأسلت الأنصاري رضي الله عنه لم تدر زوجته كبيشة بنت معن رضي الله عنها أنها ستواجه محنة أخرى بعد فقده ؛ إذ تقدَّم ابنه - من زوجة أخرى - حصن رضي الله عنه يريد أنْ يفعل مثلما يفعل الناس مع مَن مات عنها زوجها ؛ لقد قام حصن رضي الله عنه وطرح ثوبه على كبيشة رضي الله عنها معلنًا بذلك نكاحها عن أبيه أبي قيس رضي الله عنه.

لكن كيف يتزوج الرجل مَن هي في منزلة أمه ؟! عادة سيئة وظالمة كانت سائدة قبل الإسلام ؛ فإذا مات الرجل يأتي أحد أقاربه أو ابنه إذا كان له ابن من زوجة أخرى ، ويلقي على أرملته ثوبه ، وبذلك يكون قد صار الأحق بالزواج منها و بغير صداق ؛ فالصداق الذي تسلمته من زوجها الأول الذى مات يكفي في رأيهم ، وإذا أراد هذا الوارث لحقِّ زواجها أن يزوجها لمن يشاء ، فإنه يأخذ صداقها لنفسه ، وأحيانًا كان يضايقها لتعطيه شيئًا مما تركه زوجها الميت تشتري به حريتها . .

ولقد فعل حصن رضي الله عنه ما يفعله كثير من الناس ؛ لقد أعلن أنه ورث نكاحها عن أبيه ، فلم يدخل بها ، ولم ينفق عليها متوقعًا أن تفتدي نفسها ، وأحست كبيشة رضي الله عنها بالمرارة ، وشعرت أن هذه من العادات السيئة التي تتعارض مع الإسلام ، وإن كان الإسلام لم يتعرض لها ، لذلك بادرت بالذهاب إلى رسول الله ﷺ وقالت : يَا رَسُولَ اللهِ . . إنَّ قَيْسًا تُوُفِّيَ وَوَرِثَ نِكَاحِي وَقَدْ أضرنِي وَطَوَّلَ عَلَيَّ فَلاَ يُنْفِقُ عَلَيَّ ولاَ يَدْخُلُ بِي ولاَ هُوَ يُخْلِي سَبِيلِي . . فقال رسول الله ﷺ : « اُقْعُدِي فِي بَيْتِك حَتَّى يَأْتِيَ أمر الله » . .

وعلمت نسوة المدينة بذهاب كبيشة إلى رسول الله ﷺ لطرح قضيتها ؛ وهي قضية تشترك فيها الكثيرات معها ، فأسرعت فاختة بنت الأسود بن المطلب التي تُوُفِّي زوجها ، فتزوجها ابنه صفوان بن أمية رضي الله عنه ، وأسرعت مليكة بنت خارجة التي تُوُفِّي زوجها ، فتزوجها ابنه منصور بن مادن رضي الله عنه ، وأسرعت غيرهما ممن يقاسين ، وقلن : يا رسول الله . . ما نحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ، ونكحنا بنو العم ، فأنزل الله قوله الكريم : ﴿ وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٢١].

* * *

المحرم يؤدي الفدية ثم يحلق

كعب بن عجُرة رضي الله عنه

خرج المسلمون لأداء العمرة مع رسول الله ﷺ ، فأحرموا وساقوا الهدي أمامهم كي يذبحوه في المحل - وهو المكان الذي يحل به نحر الهدي ، وهو الحرم - فإذا لم يتيسر الوصول إلى الحرم ، فيذبح في مكان الحصر ؛ وذلك استجابة لقول الله عز وجل : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] . .

وقد التزم المسلمون بالإحرام ، وعدم حلق شعر الرأس ، لكن طول مكثهم في الحديبية أدى إلى إطالة مدة إحرامهم ، فلم يحلقوا شعورهم حتى إنهم عانوا مشقة ، وكان أكثر المسلمين معاناة الصحابي كعب بن عجُرة رضي الله عنه ؛ إذ كثُر القمل في رأسه بسبب طول شعره ، وكان القمل يضايقه ويؤذيه ويزيد في مرضه ومعاناته لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا أمام قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

فلمّا اشتد به الأذى حمله الصحابة رضي الله عنهم إلى رسول الله ﷺ كي يشاهده فلربما وجد له حلاً لمشكلته حلاً ؛ وذلك كما تعودّ أن يفعل الصحابة رضي الله عنهم حين يواجهون المشكلات، ورآه رسول الله ﷺ ، فوجده قد أجهده المرض والقمل الذي يتناثر على وجهه، فقال ﷺ : « ما كنت أرى الجهد هَذَا قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا » . .

فقال كعب رضي الله عنه : يا رَسُولَ اللهِ . . هَذَا القَمْلُ قَدْ أَكَلَنِي .

ثم جاء الحل الكريم الذي أراح كعبًا رضي الله عنه من مرضه ، ويتضمنه قول الله عز وجل : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ؛ ولذلك أمر رسول الله كعبًا أن يؤدي الفدية ثم يحلق شعر رأسه ، ويتخلص من القمل الذي آذاه وأمرضه .

وكان كعب يعتز بهذه الآية وبهذا الحكم ؛ فكان يقول للصحابة : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ فِيَّ خَاصَّةً ، وَهِيَ لَكُم عَامَّة .

* * *

لا حرج على المرضى والفقراء في الجهاد

عبد الله بن معقل رضي الله عنه

جلس كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ يمليه سورة « بَرَاءَة » التي تتنزل عليه ﷺ ، وأتم زيد كتابة ما أُنزلَ منها ،فوضع قلمه على أذنه ، وصدر أمر الله للمسلمين بقتال الكافرين الذين يحاربون الله سبحانه ورسوله ﷺ ، فجاء رجل أعمى ، وقال : كَيْفَ أُجَاهِدُ يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أَعْمَى ؟

وظهر من خلفه عبد الله بن معقل المزني رضي الله عنه ومعه مجموعة من فقراء الصحابة رضي الله عنهم علموا بصدور الأمر من الله سبحانه للمسلمين بالقتال ، قال عبد الله رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ .. احْمِلْنَا ..

فقال ﷺ : « واللهِ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » ..

فتولى عبد الله رضي الله عنه وتولى من معه ولهم بكاء ؛ وعزّ عليهم يُحبسوا عن الجهاد لفقرهم إذ هم لا يجدون نفقة ولا محملاً ..

وهنا نزلت رحمة الله تزيل الحرج عن الضعفاء الذين منهم المريض والأعمى ، وتزيل الحرج عن الفقراء الذين لا يجدون ما ينتقلون عليه ، ولا يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه ، إذ نزل قول الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ - ٩٣].

* * *

الزوجه الكارهة تعطي ما أخذت

ثابت بن قيس

كان ثابت بن قيس يعرف أن حظه من الوسامة يكاد يكون معدومًا ،بل كان يدرك أنه رجل دميم ، ومع ذلك أراد أن يكون له ـ ككل الناس ـ بيت وأراد أن تكون له زوجة ، وقد حمد الله كثيرًا أن قبلته جميلة بنت أبي سلول ﷺ زوجًا ، وفرح فرحة غامرة ، لذلك أهدى زوجته أجمل ما يملك ، أعطاها حديقته المثمرة ذات الثمار الطيبة هدية ومكافأة لأنها قبلت به زوجًا على دمامته . .

وإن ثابتًا ﷺ حين أهداها أعز ماله وأفضله لم يكن يدري ما يخبئه له القدر ، وكان يعتقد أنها ستظل معه العمر كله شريكة حياة وصحبة عمر ينعم معها بالأنس ، فتتبدد الوحشة ، ويفئ في ظل صحبتها من قسوة الأيام وتقلبات الحياة ، ولكنه فجأة آنس منها تغيرًا معه ، حسبه في أول الأمر بعض ما يعتري الإنسان من متاعب في الحياة تسبب له ضيقًا لا يلبث أن يزول حين تخف المتاعب ، ولكن ثابتًا ﷺ أيقن أنها برمت به ، وضاقت بصحبته . .

وقد أكدت له الأيام صحة ما ارتأى حين علم أن جميلة ﷺ ذهبت إلى رسول الله ﷺ ، وقالت له : لاَ يَجْمَعُ رَأْسِي وَرَأْسَ ثَابِتٍ شَيْء أَبَدًا . .

فقال ﷺ : « وَمَا تَكْرَهِينَ مِنْه » . .

قالت : واللهِ مَا كَرِهْتُ مِنْه دِينًا ولاَ خُلُقًا إلاَّ أني كَرِهْتُ دَمَامَتَه .

وعرف ثابت ﷺ أنه لم يعد ممكنًا أن يجمعهما بيت ؛ إذ هي كارهة ، وكيف يكون السكن مع مَن تكرهه ! وتذكر ثابت ﷺ كيف فرح بها ، وكيف أهداها أجمل ماله ، وهو اليوم يخسرها ، ويخسر ماله ، فقدَّر أن من حقه أن يسترد ماله الذي وهبه إياها لأنها قبلت معاشرته على دمامته ، فإذا كانت ترفضه ، فليس لها أن تحتفظ بما أعطاها ؛ لذلك قال لرسول الله ﷺ : لَقَدْ أَعْطَيْتُها أَفْضَلَ مَالِي ، حَدِيقَةً ، فَلْتَرُدَّ عَلَيَّ حَدِيقَتِي . .

فسألها رسول الله ﷺ : « مَاذَا تقُولين؟ » . .

فقالت : وإِنْ شَاءَ زِدتُه . .

وأقر رسول الله ﷺ أن تعيد الزوجة الكارهة ما وهبه إليها زوجها إذا كرهته وطلبت فراقه ، ثم أقرّ الله عز وجل ذلك أيضًا في قوله الكريم : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

وصار ذلك مبدأ شرعيًا ، وثابت رضي الله عنه كان هو البداية .

* * *

إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات

جندب بن ضمرة رضي الله عنه

كان إيذاء كفار قريش للمسلمين سببًا في بحثهم عن مكان يلجؤون إليه فرارًا بدينهم ، وأنفسهم من طغيان الكفار ؛ فهاجروا إلى الحبشة مرتين لما سمعوه عن عدل حاكمها الذي لا يُظْلَم عنده أحد ؛ بحثًا عن الأمن وليتمكنوا من أن يعبدوا الله حق عبادته . .

ولما أمن أهل المدينة وتمت بينهم وبين رسول الله ﷺ بيعتا العقبة صارت المدينة هي الأمل في أن يقيم المسلمون على أرضها مجتمع الإسلام الذي يشعر فيه المسلمون بالأمان، ويعبدون الله عز وجل دون مضايقة أو اضطهاد . .

ولقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إليها ، فهاجر القادرون جميعًا ثم كانت هجرته الكريمة ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه ومن بعدهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكان ذلك يعني انتقال مجتمع المسلمين وقيادتهم إلى المدينة ، ويعني أن المدينة قد صارت وطن الإسلام ، فكان مَن يدخل الإسلام من أهل مكة يبادر بالهجرة إلى المدينة ليشارك في مرحلة الجهاد مع الصحابة من المهاجرين والأنصار للذود عن الإسلام ، ونشر نوره بين الناس . .

ولكن واحدًا من مسلمي مكة هو جندب بن ضمرة تأخر في هجرته ، وظل في مكة لأنه كان شيخًا كبيرًا ، وكان معه في مكة بعض الذين آمنوا بالإسلام لكنهم كتموا إيمانهم، وبعضهم خرج في غزوة بدر مُكْرَهًا على القتال في صفوف الكفار ، فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ٩٧] . .

لقد أدرك جندب رضي الله عنه أنه ممن يقصدهم الله عز وجل بقوله ، وأدرك أن مكة لم تعد دار مقام له وللمسلمين حيث تسيطر قريش على مصائر المسلمين ، وتوجههم لقتال إخوانهم، وأدرك أن المدينة هي مجتمع الإسلام ، ولا عذر لمن لم يهاجر إليها ، وكان جندب موسرًا لكنه كان قد تقدمت به السن ، فقال لأولاده : وَاللَّهِ مَا أَنَا بِبَائِتٍ لَيْلَتِي هَذِهِ بِمَكَّةَ ، احْمِلُونِي عَلَى سَرِيرِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . .

واستجاب له أهله فوضعوه على سرير ، وساروا به ليحققوا له رغبته واتجهوا إلى المدينة المنورة . .

وكأن جندب كان يقرأ الغيب ، وكأنـه كان يعرف أن الأجل قد حان ، فأراد أن يلبي الدعوة ، وأن يهاجـر قبل أن يدركه الموت فتـفوته الفرصة ؛ففي الطريـق عند مكان اسمه «التنعيم » اشتد عليه المرض ، فأدرك أن النهاية قد حانت ؛ إذ راح يحتضر ، فصفق بيمينه على شماله ، وأخذ يقول : اللهـمَّ هَذِهِ لَكَ وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ ، أُبَايِعُكَ عَلَى مَآ بَايَعَكَ عَلَيْهِ رَسُولُك . .

ثم أسلم الروح ، وعلم كـفار قـريش بما كـان من جندب ، فلم يفـتهم أن يسـخروا منه، فقالوا : ويح جندب ؛ لا هو بلغ الذي يريد ،ولا هو أقام في أهله ، فمات بينهم ، فجهزوه ودفنوه ، وردّ الله عز وجل علي الغافلين بقوله الكريم : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] . .

وبذلك يكون الله عز وجل قـد أكرم عبـده وقبل عمله الذي حـيل بينه وبين إتمامه ، فأناله ثواب المهاجرين ، ويكون جندب ﷺ أيضًا سببًـا في بيان حكم من أحكام الإسلام ومبدأ من مبادئه يتمثل في قول رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات » .

* * *

المؤمن لا يقتل المؤمن إلا خطأ

عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه

شرح الله عز وجل صدر عياش بن أبي ربيعة المخزومي للإسلام فآمن ، لكنه خشي أن يعلن إسلامه ؛ إذ أن رسول الله ﷺ والمسلمين هاجروا إلى المدينة ، فقرر أن يلحق بهم، وكان أخشى ما يخشاه أخواه لأمه عمرو بن هشام « أبو جهل» والحارث بن هشام ، لذلك فإنه تسلل وخرج إلى المدينة هاربًا حتى أتى إلى أطم من آطامها » فتحصن فيه . .

وعلمت أمه وحزنت حزنًا شديدًا ،وقالت لبنيها : لا يظلني سقف بيت ، ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى تأتوني بعياش . .

وخرج الرجلان في طلبه يصحبهما الحارث بن زيد حتى أتوا المدينة ، وذهبوا إلى عياش رضي الله عنه » وهو في الأطم ، وقالا له : انزل . فإن أمك لم يضمها سقف بيت بعدك، وقد حلفت ألاّ تذوق طعامًا ولا شرابًا حتى ترجع إليها ، ولك علينا ألاّ نكرهك على شيء ، وألاّ نحولَ بينك وبين دينك .

وحزن عياش رضي الله عنه لما أصاب أمه من حزن ومعاناة ، واستوثق منهم المواثيق والعهود ، فنزل إليهم » ولكنهم غدروا به ؛ إذ سرعان ما قيدوه ثم قام ثلاثتهم ، فجلده كل واحد منهم مائة جلدة » وقدموا به إلى أمه التي بادرته بقولها : واللهِ لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به . .

وتركوه في الشمس مقيدًا يضايقونه بالسب والشتم ، وكان أكثرهم مضايقة له الحارث ابن زيد ، فأقسم له عياش رضي الله عنه أنه سيقتله إذا لقيه . .

وسنحت الفرصة لعياش أن يفلت من قيوده ، وأن يعود إلى المدينة ، ثم كان أن التقي عياش رضي الله عنه في المدينة بالحارث بن زيد الذي كان قد أسلم رضي الله عنه لكن دون أن يعلم عياش رضي الله عنه » فما أن رآه عياش رضي الله عنه حتى قتله بين ذهول المسلمين الذين بادره أحدهم ، فقال : أيّ شيءٍ صنعت؟! إنه قد أسلم . .

فأسرع عياش رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ قائلاً : يَا رَسُولَ اللهِ . . كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ

الحَارِثِ مَا عَلِمْتَ ، وَإِنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى قتلته . .

وهنا نزل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ [النساء : ٩٢] . .

وشرف عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه أن نزل القرآن الكريم ليرحمه مما ارتكبه ؛ إذ أنه لم يكن متعمدًا ، وصار ذلك تشريعًا خالدًا من تشريعات الإسلام .
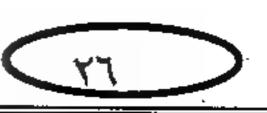
وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَبِهَا

قطبة بن عامر

كانت قريش قبل الإسلام تدّعي لنفسها منزلة خاصة بين العرب ؛ إذا هم أهل البيت الحرام ، وهم الذين يستضيفون الحجيج ويقومون بخدمتهم ، لذلك كانوا في تعبدهم يتشددون ويسلكون مسلكًا لا ينبغي أن يسلكه أحد غيرهم ، ولذلك سُمُّوا بالحمس . .

وكان مما تميز به أهل قريش أنهم كانوا في إحرامهم يدخلون البيوت من أبوابها ، وكان الأنصار وغيرهم من سائر العرب لا يدخلون في إحرامهم من الأبواب ، وكذلك كانوا يفعلون إذا كانوا في سفر ، إذ كانوا إذا قدموا ينقبون الحائط أو يعلون سوراً ، فيدخلون بيوتهم أو يأتونها من ظهورها ، وكان هذا عُرفًا سائدًا حتى حدث الموقف الذي لأجله نزل الوحي الكريم الذي يغير هذا المسلك القائم على ذلك الاعتقاد القديم . .

فقد كان رسول الله ﷺ ذات يوم في بستان ، فخرج من بابه ، وخرج معه الصحابي قطبة بن عامر الأنصاري ﷺ فقال الحاضرون : يا رسول الله . . إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب . .

فقال له رسول الله ﷺ : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْت » . .

قال : رَأَيْتُكَ فَعَلْتَهُ ففعلت كَمَا فَعَلْت . .

فقال ﷺ : « إِنِّي رَجُلٌ أَحْمَس » . .

فقال : فَإِنَّ دِينِي دِينُك . .

فأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ومن بعدها دخل سائر العرب البيوت من أبوابها حين إحرامهم ، وحين قدومهم من أسفارهم ، ولم يعد ذلك من حقوق أهل قريش « الحمس » وحدهم .

* * *

حكايات رجال آخرين

أولوا الفضل يعفون ويصفحون

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

كان حادث الإفك من الأحداث الهامة في تاريخ المسلمين ؛ إذ ليس بالأمر الهين أن تُتهم زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شرفها وعرضها ، فهذه التهمة تُقلق الرجل العادي ، وتزعجه حين تُرمى بها إحدى قريباته ، ولذلك فإنها كانت بالنسبة إلى السيدة عائشة زوجة رسول الله ﷺ ، وأم المؤمنين رضي الله عنها تعني الزلزال ؛ فزوجها الداعي إلى مكارم الأخلاق والقدوة والمعلم ، والمتصل بالوحي والسماء والذي يحمل لواء الطهر ، والعفة ، والفضيلة ﷺ ، فكيف يواصل دعوته ، وهذا الاتهام قائم ، وموجه إلى شرفه ، وإلى أهل بيته !

ولقد كانت نكبة آذت رسول الله ﷺ أولاً ثم آذت السيدة عائشة رضي الله عنها وآذت أسرتها كما آذت المسلمين جميعهم ، وحينما برأ القرآن الكريم السيدة عائشة رضي الله عنها كانت سعادة الجميع غامرة ، وإن كان ضيقهم شديداً بتلك العصبة من الناس الذين اختلقوا الفرية الظالمة ثم خاضوا فيها . .

ورغم أنه قد تم حد القذف على مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، فإن الغضب عليهم لم يبرح النفوس لاسيما ، وأن ثلاثتهم يمتون بصلة القربى، والرحم إلى البيت المحمدي الكريم .

أمّا حسان بن ثابت رضي الله عنه فهو من بني النجار أخوال رسول الله ﷺ وكان يعتز به أيما اعتزاز، ولُقّب بشاعر الرسول ﷺ ، وكان أكثر المتأذين منه صفوان بن المعطل الذي لقي السيدة عائشة رضي الله عنها وأركبها في الهودج وسار بها حتى لحق بالمسلمين فتقوّل المغرضون عليه رضي الله عنه وعلى السيدة عائشة رضي الله عنها ، لذلك فإنه اعترض حسان بن ثابت رضي الله عنه وضربه بالسيف ، ولمّا أتيا إلى رسول الله ﷺ قال صفوان رضي الله عنه : آذَانِي وَهَجَانِي فَاحْتَمَلَنِي الغَضَبُ فَضَرَبْتُه . .

فقال رسول الله ﷺ : « أَحْسِنْ يَا حَسَّان » .

وأمّا حمنة بنت جحش رضي الله عنها فقد قيل أن ما دفعها إلى ذلك هو رغبتها في نصرة أختها زينب بنت جحش رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ لأنها كانت الوحيدة من نسائه التي كانت

تنافس عائشة ﵂ في المنزلة ، تقول عائشة ﵂ :لَمْ تَكُنْ وَاحِدَةٌ تُنَاصِبُنِي فِي الْمَنْزِلَةِ غَيْرَهَا . . « أي غير زينب ﵂ » .

فأمّا زينب ﵂ فحفظها الله تعالي بدينها ، فلم تقل إلا خيرًا ، وأمّا حمنة بنت جحش ، فأشاعت من ذلك مّا أشاعت فأثمت بذلك ؛ ذلك أن رسول الله ﷺ سأل زينب عن أمر السيدة عائشة ﵂ فقال لها : « مَاذَا عَلِمْتِ » أو « رَأَيْتِ » . .

فقالت : يَا رَسُولَ اللهِ . . أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، واللهِ ما عَلِمْتُ إِلاَّ خَيْرًا . .

ولذلك تقول السيدة عائشة ﵂: عَصَمَهَا بِالوَرَعِ . .

وطفقت أختها حمنة تحارب لها فأثمت ، ولقد فعلت حمنة ذلك رغم ما يربطها برسول الله ﷺ من صلة القربى والرحم ؛ فهي أخت زوجته ، وهي أيضًا ابنة عمته ﷺ . . .

أمّا مسطح ، فهو ابن خالة أبي بكر الصديق ﵁،وكان رجلاً فقيرًا محتاجًا ، وكان أبو بكر ﵁ يواصل بره وعطاءه ، ويمد له يد العون والمساعدة ، وكان هذا العطاء لا ينقطع لذلك كان أمرًا عجيبًا وغريبًا حقًّا أن تأتي الإساءة ممن شمله الإحسان وغمره العطف وأحاطه الحنان ؛فكانت الطعنة غائرة في قلب أبي بكر ﵁ ، فغضب الرجل الذي تعلم من نبيه ومعلمه ﷺ ألاّ يغضب إلاّ لله وإلاّ للحق ، وكان غضبه عظيمًا لأنه كان حليمًا ، لذلك أقسم قائلاً : وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا وَلاَ أَنْفَعُهُ بِنَفْعٍ أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ وَأَدْخَلَ عَلَيْنَا . .

إذ اعتقد أنه ليس جديرًا ببره إذ لن تأتي الإساءة إلا ممن أسبغ عليه هذا البر . .

ولكن القرآن الكريم يُعلِّم المسلم أن يصفح مهما أصابه من أذى ، وأن يعفوا مهما وقع عليه من ظلم ، ونزل قول الله عز وجل : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] .

فلمّا سمع أبو بكر ﵁ الآية الكريمة التي تُقرر أنه من « أولي الفَضْل » طابت نفسه، وقال : بَلَى أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، ثم أعاد النفقة على مسطح وكفّر عن يمينه ، وقال : وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا أَبَدًا .

* * *

أبو بكر رضي الله عنه يغضب لله عز وجل

دخل الصِّدِّيق أبو بكر رضي الله عنه يومًا مجلسًا به جماعة من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم اسمه فنحاص بن عازوراء ـ وكان أحد علمائهم ـ فقال له أبو بكر رضي الله عنه : اتَّقِ اللهَ وأَسْلِمْ ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَجِدُونَه مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، فَآمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرِضْ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلْكَ الجَنَّةَ وَيُضَاعِفْ لَكَ الثَّوَابَ . .

فقال فنحاص : يا أبا بكر . . تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغني ! فإن كان ما تقول حقًّا ، فإن الله إذًا لفقير ونحن أغنياء ، ولوكان غنيًا ما استقرضنا أموالنا ، وإلا فيد الله مغلولة . .

فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لولا العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا لَضَرَبْت عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ . .

وذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد . . انظر إلى ما صنع بي صاحبك . .

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْت ؟ » . .

فقال : يَا رَسُولَ اللهِ . . إِنَّ عَدُوَّ اللهِ قَالَ قَولاً عَظِيمًا ، فَغَضِبْتُ للهِ وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ . .

فجحد ذلك فنحاص ، فأنزل الله عز وجل ردًا علي فنحاص وتصديقًا لأبي بكر رضي الله عنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران : ١٨١] . .

* * *
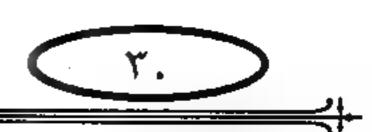
الذي أعطي واتقى

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وتتوالى مواقف أبي بكر رضي الله عنه ، ويسجل القرآن هذه المواقف بحروف من نور ، لتتلوها الأجيال وليستنير بها الطريق . .

ومن المواقف التي خلّدها القرآن الكريم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه موقفه من بلال بن رباح رضي الله عنه ، وبلال قصة رائعة سطورها ، ومن أروعها ما سطره أبو بكر رضي الله عنه . .

كان بلال عبدًا لأمية بن خلف يمتلكه ؛ حيث كانوا يملكون الإنسان ، وهدى الله عز وجل قلب بلال رضي الله عنه للإيمان فآمن وذاق حلاوة الإيمان وعلم أمية الذي يشارك في قيادة الحرب العاتية ضد رسول الله ﷺ أن بلالاً - وهو شئ يملكه - يخالف مشيئته ، وأحس بطعنة في كبريائه وشعر بالحرج ؛ إذا كيف يواجه أهل قريش الذين يقودهم ، وقد اعتنق مملوكه الإسلام ؟ إنه لم يعد من حقه أن يزعم لنفسه حق القيادة والصدارة ، وشعر الرجل بأحقاد الدنيا تجمعت في قلبه ، وأحس أنه سينفجر إذا لم تخرج هذه الأحقاد ويصبها صبًا في جسد بلال رضي الله عنه ، وهداه الشيطان أو هداه تفكيره إلى كل وسائل التعذيب التي سجلها التاريخ في صفحاته السود بمداد الحقد الأسود والتي ترويها الأجيال جيلاً بعد جيل ، حين تتحدث عن ثبات العقيدة ، وحين تتحدث عمّن يجدون حلاوة الإيمان ، فتنسيهم تعذيب الطغاة وآلام السياط . .

الهول ينزل على بلال رضي الله عنه واستجمعوا غزائمهم ،وأحقادهم ليصبوا العذاب ألوانا على بلال رضي الله عنه ، وبلال يردد : أَحَدٌ أَحَد . . .

فيجد فيها الجُنّة والحماية ، بل والمظلة التي تخفف عنه قسوة الوحوش الضارية . .

ويمر أبو بكر رضي الله عنه يومًا في شعاب مكة ، فيشاهد بلالاً رضي الله عنه ، وما يقاسيه فتدركه الرحمة ، وتأخذه الشفقة ، ويتفطر قلبه حزنًا عليه ؛ وهو الرجل الأسيف الأوّاه الذي كثيرًا ما ضاع كلامه لكثرة بكائه رضي الله عنه ، ويذهب إلى صاحبه ومالكه أمية بن خلف ، ويحاول أن يثنيه عما يفعل ،وأن يعيده إلى إنسانيته التي افتقدها ، ولكن الحقد يعمي ويصم ، فلا يشعر الحاقد ، ولا يفكر ، وإنما هي أصوات دموية ترددها حنجرة صخرية صائحًا في أبي بكر : بلال عندي وأفعل به ما أشاء ، وإن كنتَ رحيمًا به ، فخذه وادفع

ثمنه . .

فأسرع أبو بكر رضي الله عنه وأحضر رطلاً من ذهب ودفعه إلى أمية ، فانتقلت ملكية بلال رضي الله عنه من أعتى الطغاة أمية بن خلف إلى أرحم الرجال أبى بكر الصديق رضي الله عنه الذى لم يكتف بتخليص بلال من العذاب ، وإنما أعتقه راجيًا إحسان الله عز وجل ، وهكذا ساغ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقول : أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا . .

وقال المشركون : ما فعل أبو بكر ذلك إلا لِيَد كانت لبلال عنده . .

فأنزل الله تبارك وتعالى ، قوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] . .

وبذلك مهد أبو بكر طريقه الذي سلكه تحرير الأرقاء المستضعفين يشتريهم بماله ، ويعتق رقابهم ، ينقلهم من عالم الرق إلى عالم الحرية ، وهكذا أنفق ماله ، أو هكذا أبقاه عند الله سبحانه ؛ إذ كان يُقدر ما لديه من مال حين اعتنق الإسلام بأربعين ألف درهم أنفقها في شراء مَن آمن من العبيد المستضعفين حتى أنه لم يبق لديه يوم هاجر إلا خمسة آلاف درهم ، وكان أبوه أبو قحافة يقول : يا بني أراك رقابًا تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلدة يمنعونك ويقومون دونك . .

فيرد عليه أبو بكر قائلاً : يَا أَبَتِ . . إني إِنَّما أُرِيدُ وَجْهَ رَبِّي . .

فأنزل الله تبارك وتعالى ، قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ ـ ٧] . .

* * *

أبو بكر ﷺ يشكر ربه عز وجل

أكرم الله تعالى أبا بكر ﷺ بصحبة محمد بن عبد الله منذ الصبا ؛ إذ بدأت العلاقة المباركة بين الرجلين منذ أن كان عمر أبي بكر ﷺ ثمانية عشر عامًا ، وكان رسول الله ﷺ ابن عشرين عامًا ، وذلك من خلال رحلة الشام من أجل التجارة ، وفي الطريق نزلا مع القافلة منزلاً فيه سدرة ، فقعد رسول الله ﷺ في ظلها ، ومضى أبو بكر ﷺ إلى راهب لمحه بالقرب كي يسأله عن الدين ، فقال له : مَن الرجل في ظل السدرة ؟

فقال ﷺ : ذَلِكَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِب . .

قال : هذا ، واللهِ نبيٌ ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد نبي الله . .

فوقع في قلب أبي بكر ﷺ اليقين والتصديق ، وأصبح لا يفارق رسول الله ﷺ في سفره وحله . .

فلمّا كُلِّف رسول الله ﷺ بالرسالة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ﷺ وأبو بكر ﷺ ابن الثمانية وثلاثين أسلم ﷺ وصدّق رسول الله ﷺ ، فلمّا بلغ أربعين سنة ، قال : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . .

وتقول آيات القرآن الكريم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الأحقاف : ١٥].

* * *

الذين يخافون الله عز وجل

لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٤٣] كان لها أثر كبير في نفوس الصحابة ، وكان الأثر أكبر وأوضح بالنسبة لسلمان الفارسي رضي الله عنه ؛ إذ فر ثلاثة أيام هاربًا من الخوف لا يعقل ، فجيء به إلى رسول الله ﷺ ، فسأله فقال : يَا رَسُولَ اللهِ . . أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَد قَطَعَتْ قَلْبِي . .

فأنزل الله تبارك وتعالى ، قوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٤٥ ، ٤٦] . .

أما أبو بكر الصديق فقد ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار فقال : لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضْرَاءَ مِنَ هَذِهِ الْخُضَرْ تَأْتِي عَلَيَّ بَهِمَةٌ تَأكُلُنِي وَأَنِّي لَمْ أُخْلَق . .

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦].

* * *

الصاحب

أبو بكر أول المسلمين وأعظم المصدِّقين برسول الله ﷺ شاء الله تبارك وتعالى أن يجمع بينهما قبل الإسلام ، فكانت العلاقة الخالدة بين الرجلين العظيمين . فلمّا نزل الوحي لم يتردد أبو بكر ؓ في تصديق صديق عمره ؛ لِما آنسه فيه من نبل وطهارة وتنزهٍ عن الدنايا والكذب . .

يقول رسول الله ﷺ : « مَا عَرَضْتُ الإِسْلاَمَ عَلَى أَحَدٍ إلا وتَلَعْثَمَ فيه إِلاَّ أَبُو بَكْرٍ فَإِنَّه قَبِلَهُ ولَمْ يَتَوَقَّفْ فِيه » ، لذلك كان أبو بكر ؓ أولى الناس باسم الصِّدِّيق . وهو الرجل الذي اختاره الرسول ﷺ للصلاة بالناس أيام مرضه ﷺ ؛ فاختاره الناس خليفة له ﷺ قائلين : اختاره الرسول ﷺ لشئون ديننا ، فكيف لا نختاره لشئون دنيانا ؟!

وهو صاحب الهجرة ورفيق الغار ؛ إذ أن المسلمين هاجروا إلى المدينة المنورة حيث وجدوا فيها وطنِ الإسلام ، ووجدوا أهلها أنصاره ، وكلما استأذن أبو بكر ؓ رسول الله ﷺ كي يهاجر كما هاجر الناس ، قال ﷺ : « لاَ تَفْعَلْ ؛ لَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا » ، وأدرك أبو بكر ؓ ما يعنيه رسول الله ﷺ ، فاشتري راحلتين ، واحتبسهما في داره . .

تقول السيدة عائشة ؓ : كَانَ لاَ يُخْطِئُ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَأتِي بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ إِمَّا بُكْرَةً أَوْ عَشِيَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي أُذِنَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الهِجْرَةِ والخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيِّ قَوْمِهِ أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لاَ يَأتِي فِيهَا . فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ : مَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ . .

وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلاَّ أَنَا وأُخْتِي أَسْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ » . .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ . . هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ؟

فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ والهِجْرَةِ » . .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللهِ . .

قَالَ : « الصُّحْبَة » .

فَمَا شَعَرتُ قَطُّ ذَلِكَ اليَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْر يَبْكِي يَومَئِذ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ الله . . إِنَّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَانِ قَدْ كُنْتُ أَعْدَدْتُهُمَا لِهَذَا . .

فَاسْتَأْجَرَا لِهَذَا عَبْدَ الله بنَ أُرَيْقطَ ـ وكَانَ مُشْرِكًا ـ يَدُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، فَكَانَتَا عِنْدَه يَرْعَاهُمَا لِمِيعَادِهِمَا .

لقد بدأ الإعداد للرحلة المقدسة ، وكل له دور : علي بن أبي طالب يتخلّف ليمكث في فراش الرسول ﷺ خداعًا للكافرين ، وليرد الأمانات التي لدى رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه يتسمع أخبار قريش ، ويأتي بها إليهما في مكانهما ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يرعى غنمه نهارًا ثم يأتيهما مساء ليزيل آثار عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء رضي الله عنها التي تحمل إليهما الطعام واللبن . .

وتقدّم أبو بكر رضي الله عنه إلى الغار سابقًا رسول الله ﷺ ، ولم يتعود أن يتقدمه أو يسبقه ﷺ ولكنه رضي الله عنه أراد أن ينظر أفيه سبع أو حية وقاية لرسول الله ﷺ ، وبعد أن مضت ثلاث ليال جاء الدليل بالراحلتين وقربهما أبو بكر رضي الله عنه ليركب رسول الله ﷺ أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ أَرْكَبُ بَعِيرًا لَيْسَ لِي » . .

قال أبو بكر رضي الله عنه : فَهِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي . .

قال : « لاَ ، ولَكِنْ مَا الثَّمَنُ الَّذِي ابْتَعْتَهُمَا به » . .

قال : كذا وكذا . .

قال : « قَدْ أَخَذْتُهَا به » . .

قال : هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله . .

فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عامرًا رضي الله عنه خلفه ليخدمهما في الطريق، ومعهما مال أبي بكر رضي الله عنه حمله كله ، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم . .

انطلقا إلى طريق يثرب بعد أن بحث عنهما أهل قريش في كل مكان ، حتى الغار الذي كمنا به اقتربوا منه ، وحزن أبو بكر رضي الله عنه وهو يشاهدهم يقتربون ، ويسمع خفق

نعالهم أمام الغار ، ويسمع أيضًا أصواتهم الغاضبة المتوعدة ، فيقول لرسول الله ﷺ : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ لرآنا . .

ويبتسم رسول الله ﷺ ، ويقول : « مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا » . .

وينزل كلام الله الكريم يسجل هذه اللحظات الخالدة في سورة التوبة : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾

[التوبة : ٤٠]

ودائمًا كلمة الله هي العليا .

* * *

القرآن الكريم يؤيد رأي عمر ﷺ

كان يَحـدث في بيت رسول الله ﷺ بعض المضايقـات من زوجاته ﷺ ، وكان ﷺ يغضب رغم حلمه ، ويُروَى أن زوجاته ﷺ طالبنه بزيادة النفقة أو شيئًا من عرَض الدنيا ، فآلم ذلك الرسول ﷺ ، وهجرهن شهرًا لا يزورهن ، وبحث عنه الصـحابة ليخففوا عنه ﷺ وكانوا يعرفون أنهـا جفوة تحدث في بيته ﷺ كمـا تحدث في أي بيت إنساني ، ولكن لم يكن يعرف أحد مصدرها وسببها . .

وذهب عمر ﷺ إليه يحاول أن يخفف عنه ﷺ ورأى أن يختار أسلوبًا مازحًا ، فقال ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ . . لَوْ رَأَيْتَ فُلَانَة ـ يعني امرأته ﷺ ـ وسَأَلَتنِي النَّفَقَةَ فَصَككْتُهَا صكَّةً؟

فردّ ﷺ: « ذَلِكَ مَا حَبَسَنِي عَنكُم » .

لقد تجـاوب رسول الله ﷺ مع عـمر ﷺ وأخبـره عن سبب ابتعاده عن بيـته وعن صحابته ﷺ ، فكان السبب مطابقًا تمامًا لما توقعه عمر ﷺ؛ لقد كان حقًّا ملهمًا . .

يقول رسول الله ﷺ : « لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ قَبلكُمْ مُحَدَّثُونَ ،فَإِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الأُمَّة مِنهُمْ فَهُوَ عُـمَر » ، ولذلك فهناك مواقف عـديدة وافق القرآن الكريم فيهـا رأي عمر ﷺ نذكر بعضًا منها على النحو التالي :

اتخاذ مقام إبراهيم عليه السلام مصلّى :

اقترح ﷺ أن يكون مقام إبراهيم عليه السـلام مصلى ؛ إذ قال لرسول الله ﷺ : لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبراهيم مُصَلَّى . .

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥].

الصلاة على عبد الله بن أُبي :

طلب ﷺ من رسول الله ﷺ ألاّ يصلي عليه ، وصلّى عليه الرسول ﷺ . .

فنزل قـول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[التوبة: ٨٤] . .

احتجاب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :

قال رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ .. إنَّ نِسَائَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ البَرُّ والفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَحتَجِبْنَ ..

فأقرَّه القرآن الكريم ،ونزلت آية الحجاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

كما نزلت آية الحجاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

موقفه رضي الله عنه حين اعتزل الرسول ﷺ نساءه رضي الله عنهن :

ذهب إليه ﷺ ، وقال : « إِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ ، فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ » ..

ثم ذهب إليهن ، وقال رضي الله عنه : انتَهِينَ أَوْ لَيُبْدِلَنَّ اللهُ رَسُولَهُ خَيْرًا مِنكُنَّ ..

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥] .

ويقول عز وجل أيضًا : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] .

موقفه رضي الله عنه من أسرى بدر :

كان عمر رضي الله عنه يرى عدم قبول الفدية ، وخالف في ذلك أبا بكر رضي الله عنه والكثير من المسلمين رضي الله عنهم ، وأيده القرآن الكريم في قول الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ

أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

موقفه ﷺ من الخمر :

قال ﷺ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا . .

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] .

* * *
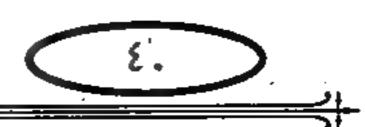
الإسلام يُحرِّمُ الخمر

عاش العرب أحقابًا خلال جاهليتهم يجدون متعتهم في شرب الخمر ؛ حيث تحلق بهم في أجواء من أوهام المتعة تخفف عنهم ما يقاسون من شظف الحياة وضحالة الفكر وظلام العقيدة . .

وحين أنار الإسلام البصائر ، وفك العقول من إسارها شعر كثير من عقلائهم أن الخمر تضمن كل شر وتجافي كل خير ، وتدعوهم إلى المنكر ، وتبعدهم عن المعروف ، لذلك تقدّم جماعة من الأنصار كما تقدم عمر بن الخطاب ﷺ ، ومعاذ بن جبل إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله . . أفتنا في الخمر والميسر ؛ فإنهما مُذهبتان للعقل مسلبتان للمال . .

فأنزل الله عز وجل قوله الكريم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] . .

فتركها قوم لقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ، وشربها قوم لقوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ في بيع الخمر وشرائها والإنفاق من ربح الميسر ، مع أن الله عز وجل بيّن أن الأضرار أكثر في قوله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ .

وذات يوم قام عبد الرحمن بن عوف بإعداد وليمة دعا إليها ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ فأطعمهم وسقاهم الخمر ، ولمّا حضرت الصلاة قرأ : قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، بدون كلمة ﴿ لا ﴾ ؛ وذلك بتأثير الخمر السيئ . .

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فحرّم الله عز وجل شرب الخمر في أوقات الصلاة ، فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء ، فيصبح ، وقد زال أثر سكره كي يصلى الصبح ، ويشربها بعد صلاة الصبح ، فيصحو وقت صلاة الظهر . .

وهكذا كان تحريم الخمر يمر بمراحل ؛ لاعتياد العرب شربها وتمكنها منهم ، فكان النهي عنها مرة واحدة أمرًا عسيرًا ، وكانت الآيتان السابقتان تمهيدًا للآية الثالثة التي

تضمنت الحكم النهائي للإسلام في الخمر . .

لقد قام عتبة بن مالك بإعداد وليـمة ودعا إليها رجالاً من المسلمين منهم سعد بن أبي وقاص ﷺ وكان عتبة ﷺ قد شوى لهم رأس بعير ، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ما أخـذت فتفـاخروا - تحت تأثير الخـمر - بأنسـابهم ، وتناشدوا الأشعـار ، وأنشد سعد ﷺ قصيـدة يفخر فيـها بقومه ويهـجو الأنصار ﷺ ، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعيـر وضرب به رأس سعد فشـجه ، فذهب سعد إلى رسـول الله ﷺ وشكا إليه الرجل الأنصاري ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: اللَّهُمَّ بيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا . .

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠ ، ٩١].

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: انْتَهَيْنَا يَا رَبِّ .

* * *

عمر ﷺ يقترح الحجاب

في ليلة زفاف رسول الله ﷺ على أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش ﷺ أعدّ ﷺ للمسلمين طعامًا ودعاهم إليه ، ولبث بعضهم طويلاً بعد أن طعموا ، وانتظر رسول الله ﷺ أن يخرجوا كما خرج باقي المسلمين ﷺ لكنهم تأخروا وازداد لبثهم ، فأخذ ﷺ يتظاهر بالانشغال عنهم ، وراح يدخل ويخرج بين حجرات بعض أزواجه حتى يفهموا أنه قد آن لهم أن ينصرفوا حتى أدركوا ـ في وقت متأخر ـ أنه ينبغي لهم الانصراف ..

وفي يوم آخر كان رسول الله ﷺ يأكل مع إحدى أزواجه ومعهم ضيف ، فلامست يد الضيف يد زوجة رسول الله ﷺ ، ﷺ، فكره رسول الله ﷺ ذلك لكنه لم يُبدِ ما في نفسه ﷺ ..

وفي يوم آخر ذهب عمر بن الخطاب ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، وقال له : يَا رَسُولَ اللهِ .. إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ البَرُّ وَالفَاجِرُ بِسُؤَالٍ وَمَقَال ..

وطلب من رسول الله ﷺ أن يأمر أزواجه ﷺ بالحجاب ، وكانت تسمع ذلك أم المؤمنين السيدة زينب ﷺ ، فقالت : يَا ابْنَ الخَطَّابِ .. إِنَّكَ لَتَغَارُ عَلَيْنَا وَالوَحْيُ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِنَا !

ولم يمض إلا وقت قليل حتى أنزل الله عز وجل قوله الكريم يؤيد عمر ﷺ في مطلبه ، ويفرض الحجاب على أمهات المسلمين ، وعلى نسائهم جميعًا .. يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، كما نزل قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

* * *

صدقْتَ يا ربي

اشتد إيذاء كفار قريش للمسلمين بعد أن حاولوا أن يثنوا رسول الله ﷺ عن الدعوة عارضين عليه المال والجاه ، بل وأن يجعلوه ملكًا عليهم ، وازداد غضبهم حين لمسوا انتشار الإسلام رغم التضييق على المسلمين ، فأعلنوها حربًا ضارية على كل مَن آمن لإرهاب مَن يفكر في دخول الدين من ناحية ، ومن ناحية ثانية تأديبًا لِمَن خرج على دينهم ، وكان أذاهم يشتد بالمستضعفين بصفة خاصة ؛ فهجموا هجمة شرسة على آل ياسر ﷺ إذ حاول أبو جهل أن يفتنهم عن دينهم هو وكفار مكة ، فلمّا لم يفلحوا أخذوهم إلى بطحاء مكة حيث يشتد الحر ، وحيث الصخور التي تمزقُ الأجساد ، وراحوا يكيلون لهم العذاب ، ومر رسول الله ﷺ فرآهم يُعذَّبون ، فقال : « صَبْرًا آلَ يَاسِر فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّة » . .

وقام أبو جهل إلى سمية ﷺ فطعنها بحربة في بطنها فقتلها ،فكانت أول شهيدة في الإسلام ، ثم قتلوا زوجها ياسر ﷺ، وتوالت أحداث التعذيب والمضايقة على غيرهما من المسلمين لاسيما الضعاف منهم ، ورغم شدة التعذيب وضراوة التنكيل لم يرتدّ أحد منهم ﷺ عن دينه ، إذ تمسك كل واحد بدينه بعد أن أشرقت أنوار الإيمان على قلوبهم ، وإمامهم في ذلك بلال بن رباح ﷺ الذي كان يوضع على الصخر الملتهب عاريًا ، وفوق صدره الأحجار العظيمة ويُضرب بالسياط ، فلا يقول إلا : أَحَدٌ أَحَد . .

وصار مشهدًا يتكرر أن تنهال السياط على أجساد المتسضعفين من المسلمين ، فتعلو أنّاتهم حينًا وتسبيحاتهم حينًا آخر ، تصعد إلى السماء ، فتتجاوب السماء مع هتافاتهم وحيًا كريمًا يتمثل في قوله عز وجل : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] .

وعندما تنزل هذه الآية يقول عمر بن الخطاب ﷺ: كَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا وَنَحْنُ قِلَّةٌ مُسْتَضْعَفُونَ !

لكن تمر الأيام وينتصر المسلمون في بدر ، وينهزم الكفار ، ويولون الدبر ، فيقول عمر ﷺ: صَدَقْتَ يَا رَبِّي . . ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] .

* * *

حزب الله

أبو بكر - عمر - أبو عبيدة رضي الله عنهم

بعد هجرة المسلمين إلى المدينة ، وبعد الإذن للمسلمين بالقتال دفاعًا عن النفس والعقيدة بعد أن آذاهم المشركون في أنفسهم ، وفي أموالهم وأهليهم ، قامت معركتا بدر وأحد ، وارتفعت السيوف الإسلامية في الأيدي المؤمنة تحمي العقيدة ، وتدفع العدوان ، وتذود عن كرامة الإسلام . .

وكان اللقاء الأول في بدر ، ولربما واجه المسلم أقرب الناس إليه ، فكان يسعى لقتله ، لأن دينه أحب إليه من أبيه وأخيه ؛ إذ تصادف أن كثيرًا من المسلمين ابتُليَ بالأب الكافر أو الابن الكافر ، فكان الله ورسوله أحب إليه من ابنه وأبيه ، وفي هذه الغزوة دعا أبو بكر رضي الله عنه ابنه للمبارزة - وكان في صفوف المشركين - وقال رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ . . دَعْنِي أَكُنْ فِي الرَّعْلَةِ الأُولَى . .

فقال رسول الله ﷺ : « مَتِّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ سَمْعِي وَبَصَرِي » .

وكذلك ارتفعت السيوف الإسلامية بأيدي المؤمنين تحصد المشركين ، ولو كانوا ذوي قربى ؛ فقد قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، كما قتل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

أمّا في موقعة أُحد فقد قتل أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه أباه ، وقتل مصعب بن عمير رضي الله عنه أخاه عبيد ، فأنزل الله عز وجل قوله الكريم : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

* * *

لا تزر وازرة وزر أخرى

عثمان بن عفان رضي الله عنه

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه من الصحابة الذين تميزوا باتساع ذات اليد ؛ إذ كان تحت يده مال وفير ، وتميز أيضًا بالسخاء والجود وحب فعل الخير ، فكان يتصدق كثيرًا ، ويكثر من فعل الخيرات . .

وذات يوم اقترب منه عبد الله بن أبي السرح ـ وكان أخاه في الرضاعة ـ وقال له : ما هذا الذي تصنع ؟! إني أراك تنفق كثيرًا ، وأعتقد أنك بذلك تُهلِك مالك ، ولا يبقى لك شيء . .

فقال عثمان رضي الله عنه : إِنَّ لِي ذُنُوبًا وَخَطَايَا ، وَإِنِّي أَطْلُبُ بِمَا أَصْنَعُ رِضَا اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَرْجُو عَفْوَهُ . .

فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها ، وأنا أتحمل ذنوبك كلها . .

فصدّقه عثمان رضي الله عنه وأعطاها ما طلب ، أعطاه ناقته برحلها وأشهدَ عليه الحاضرين ، ثم أمسك عن بعض الذي كان يصنع من الصدقة أو خفّف من عطائه للفقراء والمحتاجين ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى ، قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٣٣ ـ ٤٢] .

فعاد عثمان إلى سيرته الأولى ، وصار كثير العطاء ، والإنفاق على الفقراء والمحتاجين .

* * *

المنفقون في سبيل الله سبحانه

أبو بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما

كان عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما من أغنياء المسلمين ، ورغم أنهما تركا أموالاً كثيرة في مكة حين هاجرا إلى المدينة، فإن الله سبحانه عوّضهما ، وبارك لهما وصار لهما مال كثير ، وقد جعل الاثنان أموالهما في سبيل الدعوة ، وذات يوم جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة ، فقال رضي الله عنه : كَانَ عِنْدِي ثَمَانِيَةُ آلَافٍ فأَمْسَكْتُ مِنْهَا لِنَفْسِي ولِعِيَالي أَرْبَعَةَ آلَافٍ وأَرْبَعَةُ آلَافٍ أَقْرَضْتُهَا لِرَبِّي . .

فقال له رسول الله ﷺ : « بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ » .

وأما عثمان فقد قام بتجهيز الذين لا جهاز لهم في غزوة تبوك ، فقدّم ألف بعير بأقتابها وأحلاسها وتصدق ببئر رومة للمسلمين . .

فنزل فيهما قول الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢].

* * *

كان ميتًا فأحياه الله سبحانه
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

تعوّد أبو جـهل أن يضايق رسـول الله ﷺ ، وهو في مكة قبل الهـجرة ، وذات يوم رماه بفرث ، وعلم عـمه حمزة رضي الله عنه ، وهو عائد من صيده وبيـده قوسه ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ فغضب لابن أخـيه ، فاتجه نحو أبي جهل ، وطرحـه أرضًا وعلاه ، والقوس بيده ، فأخـذ الأخير يتضرع إليـه ، ويقول : يا أبا يعلى .. أما ترى ما جـاء به وسفّه به عقولنا ، وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا ..

قال حمزة رضي الله عنه: وَمَنْ أَسْفَهُ مِنْكُمْ !! تَعْبُدُونَ الحِجَارَةَ مِنْ دُونِ اللهِ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهِ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ..

فأنزل الله سبحانه هذه الآيات : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

* * *

الإيمان في القلب
عمّار بن ياسر رضي الله عنه

اشتد إيذاء أهل قريش للمسلمين ، وخاصة المستضعفين منهم ؛ فأخذوا ياسر وزوجه وابنه عمّار ، وصهيبًا ، وبلالاً ، وسالمًا رضي الله عنهم ليكيلوا لهم العذاب ألوانًا عقابًا لهم على إسلامهم . .

ربطوا سمية رضي الله عنها بين بعيرين ثم طعنوها بحربة ثم قتلوا زوجها ياسر رضي الله عنه ،ويعرضون على الآخرين ترك الإسلام حتى يكفوا عن تعذيبهم ، فأعطاهم عمّار رضي الله عنه ما أرادوا مكرَهًا من شدة التعذيب ، فأخبر بعض الصحابة رسول الله ﷺ أن عمّارًا كفر ، فقال رسول الله ﷺ : « **كَلاَّ إِنَّ عَمَّارًا مُلِئَ إِيمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاخْتَلَطَ الإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ** » . .

وجاء عمارُ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ باكيًا فجعل رسولُ الله ﷺ يمسح عينيه ، وهو يقول: « **إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْت** » . .

ثم نزل قول الله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦].

* * *

لا يترك دينه ولو ماتت أمه

سعد بن مالك رضي الله عنه

كان سعد بن مـالك بارًا بأمه شفوقًا عليها ، فلمّـا شرح الله صدره للإسلام ، ودخل في دين الله ، قالت له : يا سعد . . ما هذا الدين الذي قد أحدثت ! لتتركن دينك هذا أو لا آكل ، ولا أشرب حتى أموت ويُعيِّرك العرب يقولون : هذا قاتِل أمه . .

فقال رضي الله عنه : لاَ تَفْعَلِي يَا أُمَّهْ ، فَإِنِّي لاَ أَدَعُ دِينِي هَذَا لِشَيء . .

لكنها لم تستجب ومكثت يومًا لا تأكل ، وأصبحت وقد أجهدت ، ومكثت يومًا آخر وليلة لا تأكل وأصبحت ، وقد اشتد جهدها ، فلمّا رأى سعد رضي الله عنه ما صار إليه حالها ، قال لها : تَعْلَمِين وَاللهِ يَا أُمَّهْ لَوْ كَانَتْ لَكِ مَائَةُ نَفْسٍ ، فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيء ، وَإِنْ شِئْتِ فَكُلِي ، وَإِنْ شِئْتِ فَلاَ تَأْكُلِي . .

فلمّا رأت إصـراره على دينه أكلت ، وأنزل الله عز وجـل قوله الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨].

* * *

الظانّون بالمؤمنين خيراً

خالد بن سعيد رضي الله عنه

حقًّا شُغل المسلمون كثيرًا بحادث الإفك ؛ إذ أنه هز الناس هزًا لغرابته وخطورته ، أو هو الزلزال الذي أصاب الناس فجأة أثناء عودتهم من غزوة بني المصطلق ، إذ ما كان يتوقع أحد أن تُوَجَّه هذه الطعنة الغـائرة الغادرة إلى شرفهم جمـيعًا ؛ فالطعن في السيـدة عائشة رضي الله عنها إساءة للمؤمنين جميعا ؛ إذ هي رضي الله عنها أم المؤمنين . .

وإذا كان رسول الله ﷺ قـد سلك مسلكًا موضوعيًـا في معالجته للمـوقف حيث دعا أهله القريبين يسألهم ويـستشيرهم ، فأمّـا أسامة بن زيد رضي الله عنه ، فقد قال : أَهْلَكَ ، ولاَ نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْراً . .

أمّا علي رضي الله عنه ، فقد قـال : يَا رَسُولَ اللهِ . . لَمْ يُضَيِّق اللهُ عَلَيْكَ ، وَالنِّسَـاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، سَلِ الجَارِيَةَ « يقصد بريرة » تَصدُقْكَ . .

فسألها رسول الله ﷺ : « أَيْ بُرَيْرَةَ . . هَلْ رَأَيْت شَيْئًا يُرِيبُكِ؟ » . .

فقالت رضي الله عنها : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَـا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْـرًا قَطُّ أُغْمِصُـهُ غَيْرَ أَنَّهَـا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُه . .

وكذلك فعل أهل السـيدة عائشة رضي الله عنها ؛ فلم يقم أبو بكر رضي الله عنه بدفع التهمة عنها دون دليل ، واكـتفى بالصمـت ، أمّا بقيـة المسلمين رضي الله عنهم ، فقـد أحجمـوا عن اتهام السـيدة عائشة رضي الله عنها بغير دليل ، بل إن ثقتهم بها وبعفتها ، وطهرها كان بلا حدود ، وتبدو عظمة موقفهم رضي الله عنهم حين نعلم أن الوحي حبس شهرًا في هذا الحديث الخطير ، وذلك حتى يزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته . .

جلس أبو أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه إبّان الأزمة في بيته ، فجاءت امرأته رضي الله عنها وقالت : يَا أَبَا أَيُّوبَ . . ألاَ تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ ؟!

قال رضي الله عنه : « بَلَى ، وذَلِكَ الكَذِبُ ، أَكُنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ فَـاعِلَةَ ؟! » « أي هل يمكن أن تفعلي ما اتُّهمت به عائشة رضي الله عنها ؟! » .

قالت : وَاللهِ مَا كُنْتُ فَاعِلَةَ . .

قال : فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْك . .

فنزل قـول الله عز وجـل في خالد بن زيـد ، وزوجه وأمـثـالهمـا رضي الله عنهم : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ [النور: ١٢] .

يصلي للكعبة قبل أن يأمر الله سبحانه

البراء بن معرور رضي الله عنه
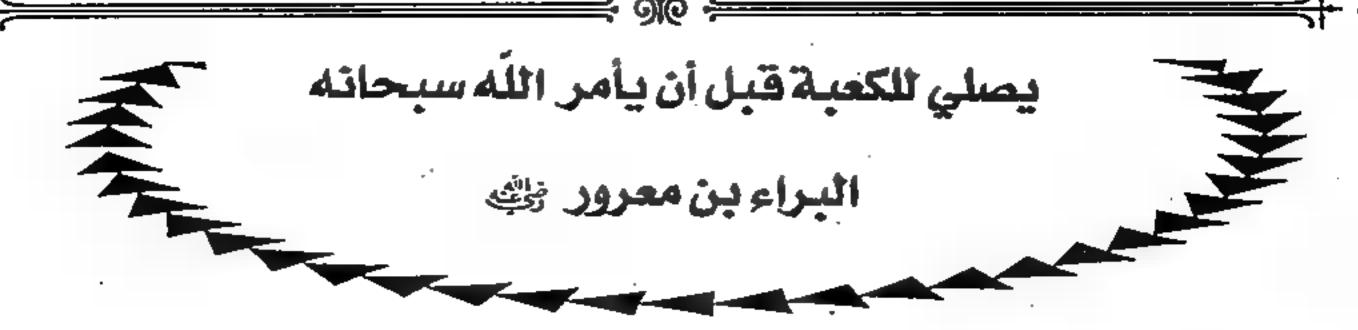
كان الرسول ﷺ يَطيب له في فجر الدعوة حين فُرضت الصلاة أن يستقبل البيت الحرام في صلاته ، شأنه في ذلك شأن العرب جميعًا الذين كانوا يُعظِّمون قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، ويحيطونها بالإجلال والتقدير لكل ما تشتمل عليه وتُذكر به ، ولكن لم يُستجَب لرغبته ﷺ بسبب الأصنام ، وأيضًا كان رسول الله ﷺ يُفضِّل أن يتفق مع أهل الكتاب فيما لم يؤمر به ، وكان من ذلك أن اتجه ﷺ في صلاته إلى صخرة بيت المقدس التي كان يتجه إليها اليهود ، وظل هذا الاجتهاد قائمًا ، وإن كان هواه ﷺ مع الكعبة .

ولقد كان هذا التعاطف مع الكعبة في نفوس العرب جميعًا ؛ فيروي ابن هشام رحمه الله أن البراء بن معرور رضي الله عنه ـ وكان سيد قومه ـ خرج في سفر مسعهم من المدينة ، ولمّا حان وقت الصلاة ، قال لهم : يَا هَؤُلاَءِ .. إِنِّي قَـدْ رَيْتُ رَأيًا وَاللهِ مَا أدْرِي أتُوافِقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ تُخَالِفُونَنِي فيهِ ، رَأيْتُ ألاَّ أدَعَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْر « يقصد ألاَّ يجعل الكعبة خلف ظهره » ..

فقال له قومه : واللهِ ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ..

فقال رضي الله عنه : إِنِّي وَاللهِ لَمُصَلٍّ إِلَى الكَعْبَةِ ..

فقالوا : ولكنَّا والله لا نفعل ..

فصلى هو إليها ، وصلُّوا هم إلى الشام ، فلمّا عادوا إلى المدينة ، قال : البراء رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ .. إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا وَقَد هَدَانِيَ اللهُ لِلإسْلاَمِ ، فَرَأيْتُ ألاَّ أجْعَلَ هَذِه البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ خَالَفْتُ أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شيء ..

فقال رسول الله ﷺ : « قَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا » .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ ، ورأى الرسول ﷺ أن هوى المسلمين مع هواه ﷺ ، فكان يتطلع أن يؤمر بالاتجاه إلى الكعبة في صلاته ، فكان يقلب وجهه ﷺ في السماء أملاً أن يأتيه الوحي بذلك . .

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

* * *

الأنفال لله وللرسول ﷺ

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ فَقَتَلْتُ بِهِ سَعِيدَ بنَ العَاصِ وَأَخَذْتُ سَيْفَهُ وَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ .. إِنَّ اللهَ قَدْ شَفَى صَدْرِي مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، هَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ ..

فَقَالَ : « هَذَا لَيْسَ لِي وَلاَ لَكَ ، اذْهَبْ وَاطْرَحْهُ فِي القَبْضِ » .

فَرَجَعْتُ وَبِي مَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ الله مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخْذِ سَلَبِي ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا مَنْ لاَ يُبْلِي بَلاَئِي ..

فَمَا جَاوَزْتُ إِلاَّ يَسِيراً إِلاَّ وَجَاءَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فقال : « إِنَّكَ سَأَلْتَنِي وَلَيْسَ لِي ، وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ لِي ، وَهُوَ لَكَ » .

إذ كانت قد نزلت سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] .

* * *

ما أحله الله لا تحرمه

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

بينما كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ إذ جاءه إلى بيته ضيف من أهله ، وقد مكث عبد الله رضي الله عنه طويلاً عند رسول الله ﷺ ثم رجع إلى بيته ، فوجد أهله لم يطعموا الضيف انتظارًا له ، فغضب من امرأته ، وقال لها : حَبَسْتِ ضَيْفِي مِنْ أَجْلِي ! الطَّعَامُ حَرَامٌ عَلَيَّ . .

فقالت امرأته بدورها : هُوَ عَلَي حَرَامٌ كَذَلِكَ . .

فقال الضيف : هُوَ عَلَيَّ حَرَامٌ كَذَلِكَ . .

فلما رأى عبد الله رضي الله عنه أنه جعل الأمر يزداد صعوبة شعر بحرج وتراجع عن تحريم الطعام على نفسه كي يأكل الضيف ، ويأكل أهل بيته ، فوضع يده في الطعام ، وقال : بِاسْمِ الله . .

ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم ، فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

* * *

المؤمنون أحق بالولاية

عبادة بن الصامت

كانت تُعقَد بين اليهود والعرب ـ في عصر ما قبل الإسلام ـ عهود ومحالفات ، وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ وهو أحد بني عوف من الخزرج ـ وعبد الله بن أبى بن سلول ـ الذى كان أيضا من الخزرج قبل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ـ حِلف مع قَيْنقاع ، وكان الخزرج بصفة عامة يحالفونهم في الوقت الذي كان يحالف فيه الأوس بني قريظة . .

ولمّا نشبت الحرب بين المسلمين وبني قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ وقام دونهم ، أما عبادة بن الصامت ، فقد مشى إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حِلفهم حيث كان له من حلفهم مثل الذي كان من عبد الله بن أبيّ ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ من الكفار وولايتهم . .

ونزل قول الله عزّ وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

* * *

تخفيف من الله

قيس بن حرمة رضي الله عنه

كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائمًا ، فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وذات يوم حضر الإفطار لكن الصحابي قيس بن حرمة الأنصاري ذهب إلى امرأته ،وقال لها : هَلْ عِنْدَكِ طَعَام ؟

فقالت : لاَ ، ولَكِنْ أنْطَلِقُ فَأطْلُبُ لَكَ . .

وكان يعمل فغلبته عينه ، وجاءته امرأته فلمّا رأته قالت : خَيْبَةٌ لَكَ . .

فلمّا انتصف النهار غُشي عليه من الإرهاق والجوع ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ . .

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة : ١٨٧].

* * *

الذي سَفِهَ نفسه

مهاجر ابن أخي عبد الله بن سلام رضي الله عنه
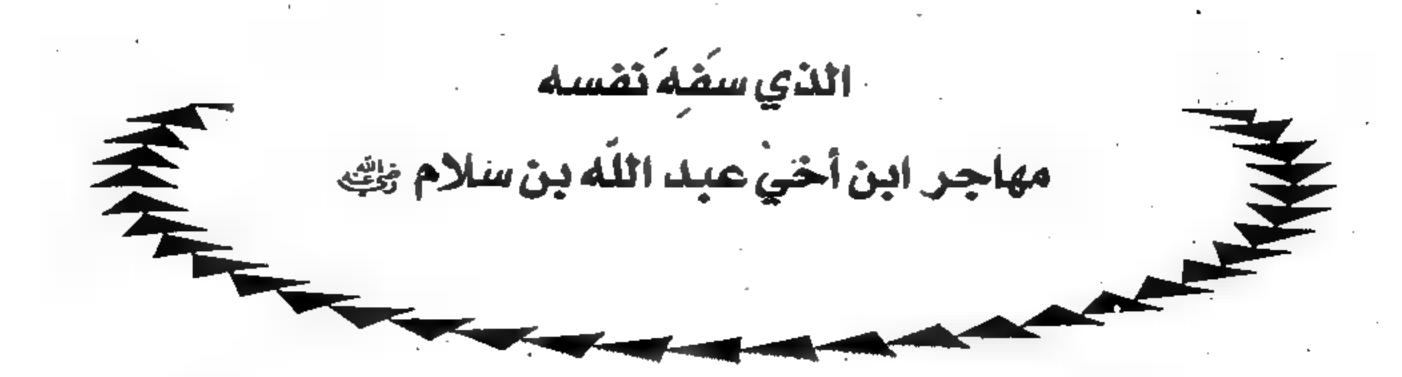
كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه من علماء بني إسرائيل ، وقد آمن برسول الله ﷺ بعد أن تأكد أنه النبي الذي بشرّت به التوراة ، وذات يوم دعا ابني أخيه سُلمى ومهاجرًا إلى الإسلام ، فقال لهما : قَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي التَّوْرَاة : [إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ نَبِيا اسْمُهُ أَحْمَدُ فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَى وَرَشَدْ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِه فَهُوَ مَلْعُون] . .

فأسلم سلمى وأبى مهاجر ، فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠].

* * *

لا يسخر قوم من قوم

ثابت بن قيس رضي الله عنه

أدرك الصحابة رضي الله عنهم أن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه يعاني من نقص في سمعه يَحول بينه وبين حسن الاستماع لحديث رسول الله ﷺ ، وكان الرجل حريصًا على أن ينهل من حديثه ﷺ شأنه في ذلك شأن سائر الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا يدركون قيمة ما يسمعونه منه ﷺ ، لذلك كان ثابت رضي الله عنه يقترب من مجلس رسول الله ﷺ كي يُحسِن الاستماع ، فلا يفوته شيء مما يقوله الرسول ﷺ ، ولقد قدّر الصحابة رضي الله عنهم ظروفه رضي الله عنه فكانوا يوسعون له حتى يقترب ، فيجلس بجانب رسول الله ، فيسمع ما يقول . .

وذات يوم جاء ثابت متأخرًا ، وقد أخذ الناس مجالسهم ، فراح يتخطى رقاب الناس، وهو يقول : تَفَسَّحُوا تَفَسَّحُوا . .

فقال له رجل من الجالسين : اجْلِسْ ، لَقَدْ أَصَبْتَ مَجْلِسًا . .

يعني أنه أفسد بمضايقته للجالسين ، فجلس ثابت رضي الله عنه وقد تملكه الغضب ، ولما تَعرّف على الرجل أراد أن يضايقه أيضًا ، فقال : مَنْ هَذَا ؟

فقال : أَنَا فلان . .

فقال ثابت رضي الله عنه : ابنُ فلانة !

وذكر أمًّا كانت له ، وكان يُعيَّر بها في الجاهلية ، فنكّس الرجل رأسه حياء ، فأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

* * *

المعلقة

ثابت بن يسار ﵁

كان الرجل يطلّق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلّقها ؛ يفعل ذلك حتى تظل في عصمته دون أن يعتبرها زوجة له حتى لا يسمح لغيره أن يتزوجها ، وذلك نكاية لها ، كان يفعل ذلك بعض الرجال على عهد رسول الله ﷺ ، وكان آخر من فعل ذلك ثابت بن يسار ﵁ ؛ حيث طلّق امرأته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة راجَعها ثم طلّقها مضارّة . .

فأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

* * *

الرجال قوامون على النساء

سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه

الصحابي سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه من الأنصار الذين حضروا بيعة العقبة ، وكان من النقباء الذين نابوا عن بقية إخوانهم في مبايعة الرسول ﷺ ، تضايق ذات يوم من زوجته حبيبة بنت زيد الأنصارية رضي الله عنها وازداد ضيقه ؛ إذ شعر أنها لا تمنحه ما يليق به من توقير واحترام كزوج لها ، فقام إليها ولطمها إذ اعتبرها نشزت عليه ، فاتجهت إلى أبيها شاكية ، فأخذها أبوها ، وانطلق معها إلى رسول الله ﷺ وقال له : أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِي فَلَطَمَهَا . .

فقال النبي ﷺ : « تَقْتَصُّ مِنْه » . .

وانصرفت حبيبة متجهة إلى بيت زوجها كي تحقق ما أمر به رسول الله ﷺ من قصاص ، ولكن سرعان ما قال الرسول ﷺ : « ارْجِعُوا ، هَذَا جِبْرِيلُ أَتَانِي » . .

وأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤].

فقال رسول الله ﷺ : « أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا ، وَالَّذِي أَرَادَ اللهُ خَيْر » ، ورفع القصاص .

* * *

إنصاف اليتيمة

جابر بن عبد الله ﷺ

كانت العرب قبل الإسلام تقسو على اليتيمة قسوة بالغة ؛ إذ أن الرجل منهم إذا أصبحت تحت يده يتيمة يسارع ، فيلقي عليها ثوبه ، وحينئذ لا يجرؤ أحد على التقدم لخطبتها ،وتظل حبسة بيته ، فإن كانت جميلة ، ورغب في الزواج منها تزوجها وضم مالها إلى ماله ، وإن كانت دميمة ، فإنه لا يتزوجها بل ويمنعها من الزواج إلى أن تموت ، فإذا ماتت ورثها .

وحدث أن صارت تحت يدي أحد الصحابة ـ واسمه جابر بن عبد الله ﷺ ـ ابنة عم له كانت يتيمة ودميمة ، لم يرغب في الزواج منها ، ولأنها تحت يدها مال لم يرغب في أن يزوجها من غيره حتى لا تنتقل بأموالها ـ التي كان يطمع أن تستمر تحت يده ـ إلى بيت رجل آخر ، لذلك قرر أن يفعل ما تعوَّد الناس عليه في ذلك من حبسها في بيته ، فلا يتزوجها ولا يزوجها ، وكانت هذه هي الحالة في أوائل عصر الإسلام ،وشعر المسلمون بفطرتهم أن هذا أمر مخالف للعدل ، وأنه رغم توارثهم له منذ أزمان إلا أنه يخالف الفطرة السليمة ،ويتسم بالقسوة البالغة ، لاسيما أنها قسوة تقع على إنسان ضعيف لا حول له ولاقوة ، وتقع عليه من أقرب الناس إليه ،وممن يفترض فيه النصرة ،ويتوقع منه الحماية والرعاية ، لذلك استفتى الناس رسول الله ﷺ . .

فأنزل الله عز وجل قوله الكريم : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧] ، وأنزل عزّ وجل ، قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾[النساء : ٣]

وهكذا كانت يتيمة جابر ﷺ سببًا في إنصاف الإسلام ليتامى النساء . .

* * *

المغرور

عبد الله بن أبي السرح

كان عبد الله بن أبي السرح ممن يكتبون ، فلمّا دخل الإسلام استعان به رسول الله ﷺ ـ كما استعان بغيره ممن يكتبون ـ في كتابة ما يتنزل من القرآن الكريم . .

واستدعاه رسول الله ﷺ ليكتب له قوله الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٤].

فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين . .

فقال رسول الله ﷺ : « هكَذَا أُنزِلَتْ عَلَيَّ » . .

فشك عبد الله حينئذ ، وقال : لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَئِنْ كَانَ كَاذِبًا لَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ . .

وارتدّ عن الإسلام ، فأنزل الله عز وجل ،قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فأحلّ رسول الله ﷺ دمه . .

فلما فتح المسلمون مكة عاد إلى الإسلام ، وأتى به عثمان بن عفان ـ وكان أخًا له من الرضاع ـ فاستأمن له .

* * *

الصادق

كعب بن مالك رضي الله عنه
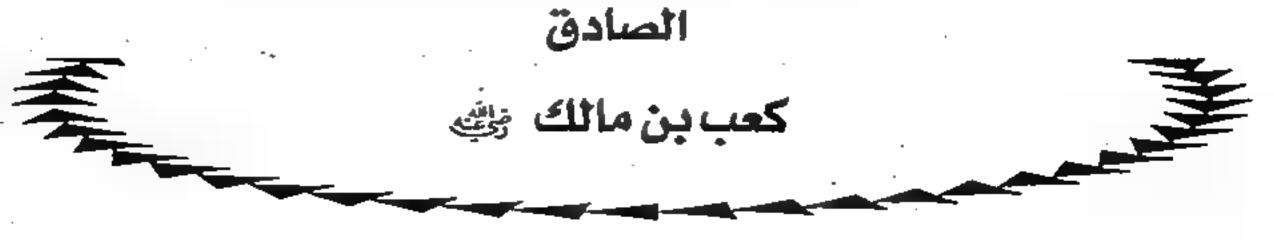
كانت غزوة تبوك في زمن عسر ؛ إذ قل الزاد ، واشـتد الحر ، فتخلف عن الاشتراك فيها عدد كثير من المسلمين آثروا الراحة ، منهم أبو لبابة وأوس بن خزام وثعلبة بن وديعة ، لكنهم بعد أن تحرك جيش الغزو ندمـوا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ ، وقالوا : نحن في الظلال ، والنساء ، والطمأنينه ، ورسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في الحر والجهاد !

وشعـروا أنهم قصرّوا في حق أنفسـهم ، وفي حق دينهم ؛ إذ حرموا أنفسـهم ثواب المجاهدين ، وتخاذلوا عن نصـرة دينهم ،فأقسموا بالله تعالى ليوثِقن كـل منهم نفسه حتى يعود رسول الله ﷺ ، فيكون هو الذي يطلقها . .

ورجع رسول الله ﷺ فشاهدهن ، فسأل : « مَنْ هَؤُلاَءِ الْمُوثَقُونَ بِسَوَارِي الْمَسْجِد» . .

فقيل لـه : إنهم أبو لبابة ، وأوس ، وثعلبة عاهدوا الله سـبحانه ألاّ يُطلِقوا أنـفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقهم بعد أن تخلّفوا عن الغزو . .

فقال ﷺ : « لاَ أُطْلِقُهُمْ حَتَّى أُؤْمَرَ فِيهِمْ » .

وبينما رسول الله ﷺ في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها إذ به يضحك ﷺ ، فسألته أم سلمة رضي الله عنها : مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله ؟

قال : « تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَة » .

فقالت : هَلْ أُخبِرُهُ بِذِلك ؟

قال : « مَا شِئْت » .

فقامت علـى باب حجرتها المطلة على المسـجد النبوي ـ ولم يكن قد فُـرِض الحجاب على أمهات المؤمنين ـ وقالت : يَا أَبَا لُبَابَةَ . . أَبْشِرْ ، فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْك . .

فسمع ذلك الصحابة رضي الله عنهم وأسعدهم نبأ عفو الله سبحانه عنه ، وهمّوا أن يُطلقوه من وثاقه ، فقال رضي الله عنه : لاَ ، حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ الله ﷺ فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي . .

وظل رضي الله عنه في قيده حتى خرج رسول الله ﷺ لصلاة الفجر فأطلقه . .

ونزل قول الله عز وجل : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا

عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢] .

وهناك ثلاثة آخرون تخلفوا مع حسن إسلامهم ، وكريم عطائهم في الإسلام ؛ إنهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ﷺ ، قال فيهم الله عز وجل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦] .

أمّا أولهم : كعب ﷺ فيقول : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلاَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوك ، غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا لأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِنَّمَا خَرَجَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَاد ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا وَرَّي بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوك فَخَرَجَ إِلَيْهَا فِي حَرٍّ شَدِيد ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَعَدَدًا كَثِيرًا ، وَأَخْبَرَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا لِيَتَأَهَبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ ، فَطَفِقْتُ أَتَجَهَّزُ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، وَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، ثم ألحقه ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ، فلم يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ، وَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ لاَ أَرَى إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا بِالنِّفَاقِ أَوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَهُ اللهُ فَكَانَ ذَلِكَ يُحْزِنُنِي . .

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ تبوك ، قال وهو جالس في القوم : « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِك؟» . . .

فقال رجل من بني سلمة : حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللهِ بُرْدُهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِه . .

فقال معاذ بن جبل ﷺ : بِئْسَمَا قُلْتَ . . وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا . .

فسكت رسول الله ﷺ .

وعاد الرسول ﷺ والمسلمون من تبوك وبدأ - كعادته ﷺ - بالمسجد يصلي ركعتين ، ثم جاء المتخلفون ، فأخذوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ﷺ ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل رسول الله ﷺ بعلانيتهم ، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى . .

وجاء دور كعب ﷺ فجلس بين يدي الرسول ﷺ فسأله ﷺ : « مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا؟ » . . .

فقال كعب ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ . . إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لاسْتَطَعْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ سُخْطِهِ بِعُذْر ، فَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً ، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثِ

كَذب تَرْضَى به عنّي لَيُوشكَنّ اللهُ أنْ يُسْخطَكَ عَلَيّ ، وَلَئِنْ حَـدَّثْتُكَ بِصدْق تَجدُ عَلَيّ فيه إنّي لأَرْجُو عُقْبَى ذَلكَ عنْدَ الله عَـزّ وَجلّ ، وَالله يَا رَسُولَ الله مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْر ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أفْرغَ وَلاَ أيْسَرَ منّي حِينَ تَخلّفْتُ عَنْكَ . .

فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ حَتّى يَقْضِيَ اللهُ فِيك » .

وسأل كعب : هَلْ لَقِيَ مَعِي هَذَا أحَد ؟

فقالوا : نعم . . مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . .

وهما رجلان صالحان ممن شهدا بدراً ، فقال ﷺ: إنّ لِي فِيهِمَا لأُسْوَة . .

ثم نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن أن يكلموا الثلاثة من بين مَن تخلف عن الغزو ، فاجـتنبهم الـناس وتغيـروا لهم حتى إنهم هُيئ لهم أن الأرض لم تعـد هي الأرض ، وأن الناس غير الناس ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة . .

أما مرارة بن الربيع ،وهلال بن أمية ﷺ، فقد قعدا في بيوتهما يبكيان . .

وأما كعب ﷺ فقد جَلَد ؛ إذ كان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالأسواق لكن دون أن يكلمه أحد ، وكان كعب ﷺ يحاول أن يتعـرف على موقف الرسول ﷺ منه ، فكان يقترب ويصلي قريبًا مـنه ﷺ ، ويختلس النظر إليه ،فكان ﷺ يراه ينظر إليه ، وهو منهمك في صلاته ،وإذا انتهى من الصلاة ونظر قبَله أعرض عنه . .

وأحس كعب ﷺ بالملل لما طاب هجـر المسلمين له وإعـراض الرسـول ﷺ عنه ، فذهب إلى أبي قتادة ﷺ ابن عمه وسلّم عليه ، فلم يردّ فـسأله : يَا أبَا قُتَادَةَ . . أنْشُدُكَ اللهَ هل تَعْلَمُ أنّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه ؟!

فسكت ولم يردّ ، وسـأله مرة ثانية ولم يردّ ، وفي الثالـثة أجاب ﷺ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَم . .

فدمعت عينا كعب ﷺ وخرج من عند ابن عمه ﷺ حزينًا لا يدري ماذا يفعل .

وذات يوم إذا برجل نبطي من بلاد الشـام ـ كان قادمًـا في قافلة يبيع أفـرادها الطعام لأهل المدينة ـ يسأل الناس : مَنْ يَدُلّني عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالك ؟

فأشار إليه الناس فـأعطاه كتابًا من ملك غسان ، قرأه وجد مكتوبًا فـيه : أمّا بعد . . فقد بلغَنا أن صاحبكَ قد جفاك ،وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالحقْ بنا نواسِيك . .

لكن كعبًا ﷺ ذهب إلى التنّور وأحرقه ، واعتقد أن هذا الخطاب من البلاء . .

ثم زادت المحنة ؛ إذ أرسل رسول الله ﷺ إليه بعد مضى أربعين ليلة رسولاً يقول له: يَأْمُرُكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ . .

فسأله كعب ﷺ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا ؟

قال : بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا . .

فقال كعب ﷺ لامرأته ﷺ : الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ مَا يَشَاء .

وبعث رسول الله ﷺ إلى مرارة وإلى هلال ﷺ يطلب منهما ما طلبه من كعب ﷺ من أن يعتزل كل منهما زوجته ، فجاءت امرأة هلال ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، وقالت : يَا رَسُولَ اللهِ . .

إِنَّ هِلاَلاً شَيْخٌ ضَعِيفٌ وَلَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَل تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟

قال ﷺ : « لاَ ، وَلَكِنْ لا يَقْرَبَنَّكِ » . .

فقالت : لاَ ، وَاللهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ ، وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا . .

ولقد قيل لكعب ﷺ : استأذنْ رسولَ الله ﷺ في امرأتك مثلما استأذن هلال كي تخدمك . .

فلم يفعل .

وبعد خمسين ليلة صلى ﷺ الصبح على ظهر بيته ، وجلس وقد ضاقت عليه الأرض وتضاعف الهم ، وإذا بصوت يصرخ : أَبْشِرْ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِك . .

فخرّ كعب ﷺ ساجدًا ؛ إذ أدرك أنه الفرج قد جاء من عند الله سبحانه رأن الله سبحانه قد تاب عليه ، ولم يجد ﷺ ما يكافئ به البشير ﷺ إلا ثوبه كساه إياه ؛ لأنه لم يكن يملك شيئًا ، وانطلق إلى المسجد ، فرأى رسول الله ﷺ جالسًا بين الصحابة ﷺ وما أن لمح كعبًا ، حتى قال له ـ ووجهه يبرق من السرور ـ « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » . .

فسأل كعب عن مصدر البشرى : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟

فيقول ﷺ : « لاَ ، بلْ منْ عنْد الله » .

فيقول كعب ﷺ :إنَّ منْ توبَتِي أنْ أنْخَلعَ منْ مَالِي صدَقَةً إلَى الله ورَسُوله . .

فيرد عليه ﷺ : « أمْسكْ علَيْك بَعْضَ مَالكَ ، فَهُوَ خيْرٌ لَك » .

فـيقـول كعب : يا رسُـولَ الله . . مَا نَجَّـانِي اللهُ إلاَّ بالصِّـدْق ، وإنَّ منْ توبَتِي ألاَّ أحدِّثَ إلاَّ صـدْقًا مَا حَيِـيتُ ، والله مَا علمْتُ أحَدًا أبْلاَهُ اللهُ منَ الصِّـدْقِ فِي الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرتُ ذَلكَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ أحْسَنَ ممَّا أبْلاَنِي اللهُ تعَالَى . .

وأخذ كعب ﷺ يردد في سعادة ما أنزله الله عز وجل معلنًا قبول توبته ﷺ :﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة :١١٧، ١١٨].

* * *

الرابع

صهيب الرومي رضي الله عنه

حينما عزم صهيب الرومي على الهجرة إلى المدينة ركب راحلته ، وحمل قوسه وكنانته، وتقلد سيفه وسار في الطريق ، لكن علم بهجرته مشركو مكة ،فتبعه نفر منهم ، وكانوا يستهينون به لأنه غريب عنهم ، فنزل عن راحلته ونثر سهامه وأخذ قوسه ، وقال يخاطبهم :يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ تَعْلَمُونَ أَنِّي مِنْ أَمْهَرِكُمْ رَمْيًا ، وَايْمُ الله لاَ تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَ بِمَا فِي كِنَانَتِي ثُمَّ أَضْرِب بِسَيْفِي مَا دَامَ فِي يَدِي ثُمَّ افْعَلُوا مَا شِئْتُم . .

قالوا : دُلَّنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك . .

وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه ، ففعل فانصرفوا عنه ، وتركوه يهاجر مقابل ماله كله الذي تركه بمكة ، وكان قد جمعه من صناعة السلاح في مكة التي كان يتقنها رضي الله عنه . .

فلمّا قدم على النبي ﷺ بالمدينة قال له ﷺ : « أَبَا يَحْيَى .. رَبِحَ الْبَيْعُ رَبِحَ الْبَيْع » . .

ونزل قول الله عز وجل :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧].

* * *

الصادقون في عهدهم
أنس بن النضير رضي الله عنه

حزن الصحابي الجليل أنس بن النضير رضي الله عنه لأنه لم يشهد معركة بدر ؛ ذلك أن كثيراً من الصحابة كانوا يعرفون أن خروج رسول الله ﷺ إنما كان للقاء عير قريش القادمة من الشام ، فكان تخلفهم لاطمئنانهم إلى أنه ليس ثمة قتال ، لكن لما تنبهت قريش وخرجت برجالها تحمي قافلتها ، وقامت المعركة في بدر حزن أنس بن النضير رضي الله عنه وقال : غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ مَشْهَدٍ يَشْهَدُهُ رَسُولِ الله ﷺ ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ سُبْحَانَهُ قِتَالاً لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَع . .

ولما كان يوم أُحد وخالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وتركوا أماكنهم حين رأوا انتصار المسلمين في بداية المعركة فكرّ عليهم فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وانكشف المسلمون ، وثبت المسلمون وثبت رسول الله ﷺ في قلة من الصحابة ، قال أنس رضي الله عنه : اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ . . « يعني المسلمون » .

ثم مضى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : أَيْ سَعْدُ . . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُد . .

وظل رضي الله عنه يقاتل المشركين حتى قتل ، فلمّا انجلت المعركة وجده المسلمون بين القتلى به بضع وثمانون جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، وقد مثّل به المشركون ، وما عرفه إخوانه حتى عرفته أخته ببنانه رضي الله عنهما . .

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

* * *
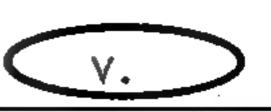
آتاه خيراً مما أُخذ منه

العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

أسر العباس عم النبي ﷺ ، وكان رضي الله عنه أحد العشرة المطعِمين أي : الذين ضمنوا إطعام جيش المشركين في بدر ،ولذلك أخذ معه عشرين أوقية من الذهب لينفق في إعداد الطعام ؛ إذ كان كل واحد من العشرة عليه أن يطعم كل يوم عشرة جزور ،فلمّا أسر العباس أخذ ما معه من ذهب ، ولمّا قبل الرسول ﷺ منهم الفداء كلّم العباسُ الرسولَ ﷺ كي يجعل العشرين أوقية ذهبًا من فدائه ، فرفض وقال :« أَمَّا شيء خَرَجْتَ تَستَعِينُ بِهِ عَلَيْنَا فَلاَ » .

وكلفه الرسول ﷺ فداء نفسه وفداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب بعشرين أوقية من فضة . فأنكر العباس أن لديه مال ، فقال له رسول الله ﷺ : « فَأَيْنَ الذَّهَبُ الَّذِي دَفَعْتَهُ إِلَى أُمّ الفَضْلِ « زَوْجَته » سَاعَةَ خَرَجْتَ مِنْ بَدْرٍ وَقُلْتَ لَهَا : إِنْ حَدَثَ لِي حَدَثٌ فَوَجِّهِي هَذَا لَكِ وَلِعَبْدِ اللهِ وَالفَضْلِ وَقُثم » ..

فقال العباس : وما يدريك ؟!

قال رسول الله ﷺ : « أَخْبَرَنِي اللهُ بِذَلِكَ » .

قال العباس رضي الله عنه :أَشْهَدُ إِنَّكَ لَصَادِقٌ ، وَإِنِّي قَدْ دَفَعْتُ إِلَيْهَا ذَهَبًا ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ .

ويقول العباس رضي الله عنه بعد ذلك : أَعْطَانِي اللهُ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنِّي إِذْ أَعْطَانِي عِشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ يَضْرِبُ بِمَالٍ كَثِيرٍ مَكَانَ العِشْرِينَ أُوقِيَّةً وَأَنَا أَرْجُو مَغْفِرَةَ رَبِّي : .

ويقول الله عز وجل في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠].

* * *

وعادت جميلة رضي الله عنها إلى بيتها

أبو البداح رضي الله عنه

تسرّع أبو البداح وطلّق زوجته جميلة ابنة يسار، وعادت جميلة رضي الله عنها إلى بيت أخيها معقل بن يسار رضي الله عنه. ومرت أيام أدرك خلالها أبو البداح رضي الله عنه أنه أخطأ في حق نفسه، وفي حق زوجه؛ إذ جعل الغضب يتمكن منه، ويدفعه إلى قرار متسرع ما كانت تستحقه جميلة رضي الله عنها. وكلما مرّ يوم تأكد لديه أنه أخطأ، إلا أنه تأخر فلم يراجعها..

فلمّا انقضت عدتها اتجه رضي الله عنه إلى بيت أخيها معقل رضي الله عنه يخطبها من جديد، لكن معقل رضي الله عنه قال له: لَقَدْ خَطَبَ إِلَيَّ أُخْتِي الخُطَّابُ فَمَنَعْتُهَا النَّاسَ وَآثَرْتُكَ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمْتُكَ بِهَا فَطَلَّقْتَهَا طَلاَقًا لَكَ فِيهِ رَجْعَةٌ وَلَكِنَّكَ لَمْ تُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا وَخَطَبَهَا إِلَيَّ الخُطَّابُ فَجِئْتَ تَخْطُبُهَا مَعَهُمْ.. وَاللهِ لاَ تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا..

لقد حزن معقل رضي الله عنه لأن أبا البداح رضي الله عنه تأخر في إرجاعها إلى عصمته أثناء العدة، وحزن أكثر عندما تذكّر أيام أن خطبها، وكان قد تقدّم غيره لكنهم آثروه وفضّلوه وزوّجوه، لذلك أحس معقل رضي الله عنه أنه أهانهم وأراد أن ينتقم لنفسه، ونسى أن البيت الذى انهدم فى ساعة غضب يتمنى أهله أن يقيموه من جديد، سواء الزوج أو الزوجة رضي الله عنهما..

فأنزل الله عز وجل قوله الكريم: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فقام معقل رضي الله عنه فور أن سمع أمر الله سبحانه ودعا أبا البداح، وقال له: أُزَوِّجكَ وأُكْرِمُكَ، وعادت جميلة رضي الله عنها إلى بيتها.

* * *
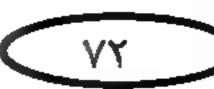
وعد الله سبحانه

المقداد بن عمرو ﷺ

حين علم المسلمون بقدوم قافلة أبي سفيان من الشام ، وفيها أموال الأعداء من قريش، وخرجوا للقائها ، انحاز أبو سفيان بالعير ناحية البحر الأحمر وسلك طريقًا بعيدًا عن الطريق المعتاد الذي سار إليه المسلمون ، وقدم أهل مكة « إذ أرسل إليهم أبو سفيان يستنجد بهم » ولمّا سأل رسول الله ﷺ المسلمين ، قال بعضهم : يا رسول الله .. ما لنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ..

فقال المقداد بن عمرو ﷺ: لاَ تَقُولُوا كَمَا قَوْمُ مُوسَى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[المائدة: ٢٤] ..

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

* * *

الجهاد .. والا التهلكة

أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه

لمّا هاجر أهل مكة إلى المدينة أحسن أهل المدينة إيوائهم واستقبالهم وأكرموا وفادتهم ؛ ذلك أن المهاجر كان يفر بنفسه ودينه تاركًا ماله في مكة ، فاعتبر الأنصار أنفسهم مسئولين عن أهل مكة ، فاقتسموا معهم أموالهم ودورهم ومزارعهم ومكنّوهم من الحياة الكريمة ، ولم يَعْرِفُوا بخلاً ولا شحًا ،وإنما جعلوا أموالهم في سبيل الله سبحانه . .

ولمّا استقر الإسلام وفتح المسلمون مكة وأعز الله سبحانه دينه وكثر ناصروه وصار للمهاجرين أموال ومزارع ولم تعد أموال الأنصار هي الأموال الوحيدة في الإسلام شعر الأنصار أن التمويل بالمال لم يعد مسئوليتهم وحدهم لأنّ سائر المسلمين صار تحت أيديهم المال لاسيما وقد أصابتهم سنة بجدبها ، فقالوا لبعضهم البعض : إن أموالنا قد ضاعت فلو أنّا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع . .يقصدون بذلك التخفف من الاشتراك في الغزو ، وأن يقيموا بالمدينة كي يشرفوا على مزارعهم وأعمالهم .

فأنزل الله سبحانه قوله الكريم : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

فردّ الله سبحانه على ما همّ به الأنصار في أنفسهم من إعطاء أنفسهم فرصة يستثمرون أموالهم متصرفين عن الغزو والجهاد ، لذلك أقبلوا على الجهاد قائلين : لبيك اللهم لبيك . .

وقضى بعضهم ما بقي له من عمر مجاهدًا في سبيل الله سبحانه مثل أبى أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي شارك في كل الحروب حتى استشهد في حملة مسيلمة بن عبد الملك رضي الله عنه التي حاول من خلالها أن يستولي على القسطنطينية ذات الحصون العالية ، فاستشهد رضي الله عنه عند أسوارها ، وهو يحاول اقتحامها ، واستمرت الحملات بعد ذلك تحاول اقتحامها ، ونداء المجاهدين دائمًا : لبيك جارَ رسول الله ﷺ . .

حتى تمكّن المسلمون من فتحها في عهد السلطان محمد الفاتح رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

أعمى يجاهد

عبد الله بن شريح « ابن أم مكتوم » رضي الله عنه

المسلم حريص على كسب ثواب الله سبحانه ورضاه ، وحريص على أن يسجل في رصيد حسناته كل يوم جديدًا ، ولذلك فإن المسلمين على عهد رسول الله ﷺ كانوا يتيقظون لما يتنزل من آيات تفتح لهم أبواب العمل الصالح ، وكانوا يعتبرون هذه الأبواب فرصًا تُغتنم ولا تُضيع . .

والجهاد من أعظم أبواب الخير لذلك كانوا يحرصون على الاشتراك فيه مَن يستطيعه ومَن لا يستطيعه ،وكان رسول الله ﷺ يردّ كثيرين ممن لا تسمح ظروفهم بالاشتراك فيه ، كمَن يعول أبا أو أما وليس لهما غيره ، أو كمَن هو صغير السن ، أو كمَن لا يجد ما يحملهم عليه في انتقالهم للمعارك ، فكانوا يعودون رضي الله عنهم والدمع يفيض به العيون . .

ومن صحابة رسول الله ﷺ الحريصين على كسب الحسنات الصحابي الجليل عبد الله ابن شريح رضي الله عنه ـ الشهير بابن أم مكتوم ـ وهو الذي نزل فيه قرآن كريم ؛ إذ هو الأعمى الذي عبس رسول الله ﷺ في وجهه رضي الله عنه وتولّى ، ثم عاتبه ربه عز وجل في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ [عبس: ١ ـ ٤] لذلك كان رسول الله ﷺ يقول له كلما لقيه : « مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي».

هذا الرجل الحريص على أن يتعلم من رسول الله ﷺ كان أيضًا حريصًا على أن يشترك في الجهاد رغم كونه مكفوف البصر كي يأخذ أجر المجاهدين ، وكان رضي الله عنه يقول : خُذُونِي أَحْمِلُ لَكُمُ الرَّايَةَ كَيْ أُثْبِتَ بِهَا ولاَ أفر لأنى لا أستطيعُ فراراً . . .

هذا الصحابى الجليل رضي الله عنه يتنزل فيه قرآن مرة ثانية ، إذ يحكى الصحابى زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول : كُنْتُ عند النبي ﷺ حين نَزَلتْ عليه: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥] ولم يذكر أولى الضرر، فقال ابن أم مكتوم : كيف وأنا أعمي لا أبصر؟!

فتغشى رسول الله ﷺ فى مجلسه الوحى فاتكأ على فخذى ، فوالذى نفسى بيده لقد ثقل على فخذى حتى خشيت أن يرضها ثم سرى عنه فقال :﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥] فكتبها .

وهكذا أنزل الله سبحانه ما يرضى ابن أم مكتوم رضى قبل أن يبرح مجلس رسول الله ﷺ .

* * *

الطاعة
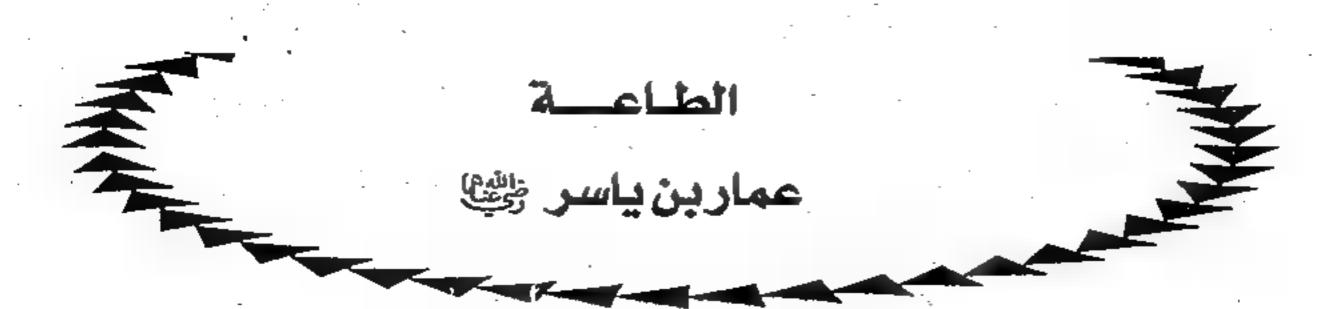
عمار بن ياسر ﵁

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﵁ في سرية إلى حي من أحياء العرب وكان معه عمار بن ياسر رضى الله عنهما ، ولما اقترب خالد ﵁ برجاله من الحى هرب أهله وتركوا الديار إلا واحد منهم كان قد أسلم ، فأمر أهله أن يتأهبوا للسير ، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد، ودخل على عمار فقال : يا أبا اليقظان.. إنى منكم ، وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا ، أما أنا فاقمت ولم أهرب معهم لإسلامي . أهذا ينفعنى أم أهربُ كما هرب قومى؟

فقال عمار ﵁: أقم .. ذلك نافعك ..

وانصرف الرجل إلى أهله وأقام معهم ، وفى الصباح أغار خالد ورجاله رضى الله عنهم على القوم فلم يجدوا غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فأتاه عمّار رضى الله عنه وقال : خَلِ سَبيلَ الرجلِ ، إنه مُسلم ، وقد كُنتُ أمنته وامرأته بالمقام..

فقال خالد رضى الله عنه : أنت تجير على وأنا الأمير !

فقال عمار رضى الله عنه : نَعم .. أنا أجير عليك وأنت الأمير ..

وصار بين الرجلين نقاش حاد وخلاف فى الرأى ، وانصرفوا إلى رسول الله ﷺ وأخبر عمّار رسول الله ﷺ بخبر الرجل فأمنه رسول الله ﷺ وأجاز أمان عمار رضى الله عنه ، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه ..

لكن الحوار اتصل بعد ذلك مرة ثانية بين عمّار وخالد رضى الله عنهما ، واستبَّ كلاهما بين يدي رسول الله ﷺ، فأغلظ عمّار لخالد الذي غضب ،وقال : يَا رَسُولَ اللهِ .. أتَدَعُ هَذَا العَبْدَ يَشْتِمُنِي ، فَوَاللهِ لَوْلاَ أَنْتَ مَا شَتَمَنِي .. « كان عمّار ﵁ مولى لهاشم ابن المغيرة » .

فقال رسول الله ﷺ : « يَا خَالِدُ ..كُفَّ عَنْ عَمَّارٍ ؛ فَإِنَّ مَنْ يَسُبُّ عَمَّاراً يَسُبُّهُ اللهُ ، وَمَن يُبْغِضُ عَمَّاراً يُبْغِضُهُ اللهُ » .

فقام عمّار رضي الله عنه فتبعه خالد رضي الله عنه وأخذ بثوبه وسأله أن يرضى عنه ، فرضى عنه ..

وأنزل الله عز وجل قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩] .

* * *

أمانة وخيانة

عبد الله بن سلام ﷺ وفنحاص بن عازوراء

رجلان من قريش استودع كل منهما وديعة عند آخر ، أمّا أولهما فقد استودع وديعته عند عبد الله بن سلام ﷺ وكانت ألفًا ومائتي أوقية من الذهب ، وحين طلب وديعته أعادها إليه عبد الله بن سلام ﷺ . .

أمّا الآخر فقد حفظها عند يهودي اسمه فِنحاص بن عازوراء ، وكانت الوديعة دينارًا واحدًا ، فلمّا طلب وديعته خانه فنحاص وجحد ما عنده ؛ ذلك أن اليهود يعتقدون أنه يحل لهم أن يأكلوا أموال غيرهم ويجحدوها على أنها غنيمة لهم . .

وقد نزل لذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

* * *

المطعمون لوجه الله سبحانه
علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

عاد علي بن أبي طالب ﷺ إلى بيته ذات مساء ، وهو يشعر بالإرهاق ، وكان يحمل معه كمية من شعير هي أجره عن ذلك اليوم الذي قضاه ﷺ يسقي نخيل بعض أهل المدينة ،وقضى ليلته ، فلمّا أصبح الصباح قامت زوجته السيدة فاطمة ﷺ بطحن الشعير كي تعد له ولأولادهما ﷺ طعامهم ، وجهزّت لهم طعامًا يحبونه اسمه «الخزيرة»، ولمّا تم نضجه ،وقبل أن يجتمع شمل الأسرة ليتناولوا طعامهم طرّق بابهم طارق، فسأل على كرم الله وجهه : مَنْ بِالبَاب ؟

فأجاب الطارق : مسكين لم يذق في يومه طعامًا .

فقام علي كرّم الله وجهه وحمل إليه الطعام وأعطاه إياه . .

ثم قامت السيدة فاطمة ﷺ بإعداد طعام آخر بجزء من دقيق الشعير المتبقي لديهم ، ولمّا تم نضجه سمعوا طارقًا على بابهم ، فقال علي كرّم الله وجهه : مَنْ بِالبَاب ؟

فسمعوا مَن يقول : يتيم لم يذق في يومه طعامًا . .

فقام إليه علي كرم الله وجهه وأعطاه إياه . .

ثم قامت السيدة فاطمة ﷺ بإعداد الجزء المتبقي طعامًا لهم ﷺ ، وحين تم نضجه إذا بالباب يطرق ، وللمرة الثالثة يسأل علي كرّم الله وجهه عن الطارق فيجيبه : أسير جائع . .

فخرج ﷺ إليه فوجده أسيرًا من المشركين يشكو إليه الجوع ، فأعطاه ما بقي عندهم من طعام ، وقضت الأسرة المسلمة ليلتها تعالج الجوع بالماء . .

فأنزل الله عز وجل فيهم قوله الكريم : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) ﴾ [الإنسان : ٨ ـ ١٢] .

* * *
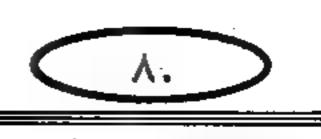
الشهادة حين الوصية

تميم الداري ، عدي بن بداء رضي الله عنه

قال تميم الداري رضي الله عنه في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦].

قال : بَرِئَ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرِي وَغَيْرُ عَدِيِّ بنِ بَدَّاء . .

ذلك أنهما كانا نصرانيينْ يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له : بديل بن أبي مريم بتجارة وكان معه جام من فضة ، فمرض فأرسل إليهما ، وأمرهما أن يبلغا تركته لأهله . .

قال تميم رضي الله عنه : فَلَمَّا مَاتَ أَخَذْنَا ذَلِكَ الجَامَ فَبِعْنَاهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ثُمَّ اقْتَسَمْنَاهُ أَنَا وَعَدِيُّ بنُ بَدَّاء ، فَلَمَّا قَدِمْنَا إِلَى أَهْلِه دَفَعْنَا إِلَيْهِمْ مَا كَانَ مَعَنَا ، وَفَقَدُوا الجَامَ فَسَأَلُونَا عَنْهُ فَقُلْنَا : مَا تَرَكَ غَيْرَ هَذَا ، وَمَا دَفَعَ إِلَيْنَا غَيْرَهُ . . فلما أَسْلَمْتُ تَأَثَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَخَبَّرْتُهُمْ الخَبَرَ وَدَفَعْتُ إِلَيْهِمْ خَمْسَمَائَةَ دِرْهَمٍ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ عِنْدَ صَاحِبِي مِثْلَهَا . .

فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُمُ البينة فَلَمْ يَجِدُوا ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُ فَحَلَفَ . .

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

وكَذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٧، ١٠٨] .

فقام عَمْرُو بنُ العَاصِ وَرَجُلٌ آخَرُ فَحَلَفَا فَنُزِعَتِ الخَمْسُمَائَةُ دِرْهَمٍ مِنْ عَدِيِّ بنِ بَدَّاء .

* * *

مِن مواقف اليهود لعنهم الله

يغيِّرون صفة النبي ﷺ :

كانت صفة النبي ﷺ - قبل أن يُبعث - موجودة « مكتوبة » في التوراة : أكحل العين ربَعة جَعد الشعر حسنَ الوجه . . فمحوها حسدًا وبغيًا إذ كانوا يتوقعون أن يكون ﷺ منهم ففوجئوا به يُبعث من العرب ولد إسمـاعيل عليه السلام « فقالوا : نجده طويلاً أزرق سبط الشعر . .

فنزل قول الله عزّ وجل : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩].

خالدون في النار :

وحين قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا يقولون : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذّب الناس بكل ألف سنة من أيام الدنيا يومًـا واحدًا في النار من أيام الآخرة ، فإنما هي سبعـة أيام ثم ينقطع العذاب . . فأنزل الله عـز وجل قوله : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠ ، ٨١].

يعرفون النبي ﷺ وينكرونه :

وكانتْ يهود خيبـر تقاتل غطفان ، فلمّا التقوا هُزمت اليهـود ، فعاذوا بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق مـحمد النبي الأمي الذي وعـدتّنا أن تخرجه لنا في آخـر الزمان إلا نصرتنا عليهم . . فكانوا إذا التقوا يدعون بهذا الدعاء ، فيهزمون غطفان ، فلمّا بُعث النبي ﷺ كفروا به . . فـأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩].

* * *

أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ

عبد الله بن سلام رضي الله عنه

ظل اليهود يترقبون مبعث رسول الله ﷺ زمنًا ؛ إذ بشرتهم به التوراة ، وعرّفتهم نعته وصفته وبعثه ﷺ ، لذلك فإن الصالحين منهم آمنوا به ﷺ ، وصدّقوه ، وأسلموا ، بينما وقف غالبيتهم موقف العداء . .

وذات يوم لقي أحد مؤمنيهم ،وهو عبد الله بن سلام رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له : لأَنَا أَشَدُّ مَعْرِفَةً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَعْرِفَتِي بِابْنِي . .

فقال عمر رضي الله عنه: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا ابْنَ سَلَامٍ ؟!

قال رضي الله عنه : لأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَيَقِينًا وَأَنَا لاَ أَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى ابْنِي لأَنِّي لاَ أَدْرِي مَا أَحْدَثَ النِّسَاء . .

فقال عمر رضي الله عنه: وَفَّقَكَ اللهُ يَا ابْنَ سَلَامٍ . .

فنزل قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦].

* * *

إســـلام
عبد الله بن سلام رضي الله عنه
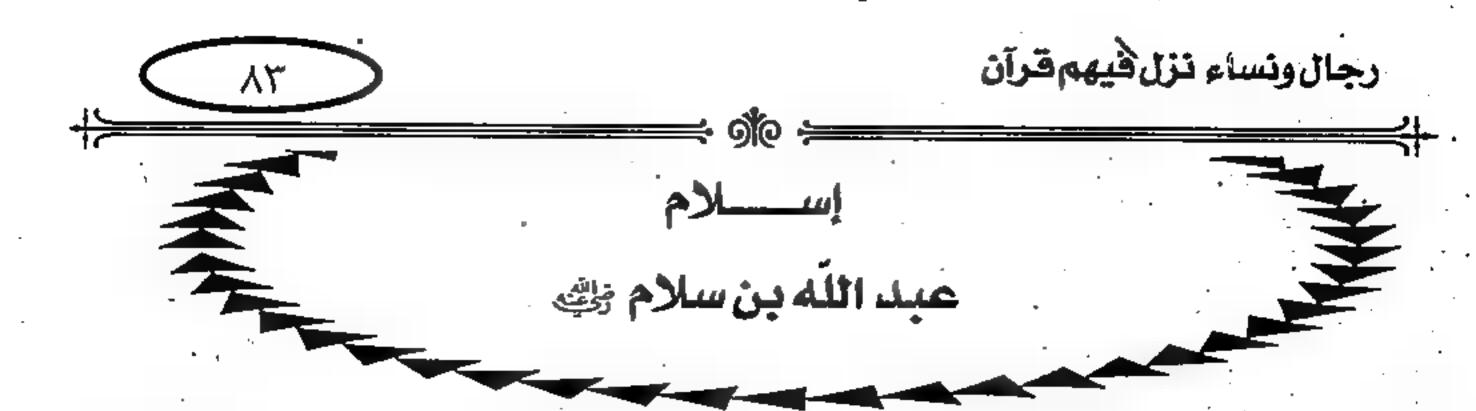
شرح الله سبحانه صدر عبـد الله بن سلام إلى الإسلام بعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، فذهب رضي الله عنه إليه ﷺ وأشهر إسلامه ثم قال للرسول ﷺ : إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ ، لِذَلِكَ لاَ تُعْلِنْ لَهُمْ إِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ عَنِّي حَتَّى لاَ يَقُولُوا فِيَّ قَوْلاً مَذْمُومًا . .

والتقى رسول الله ﷺ باليهود ، فسألهم : « مَاذَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ سَلاَمٍ » . .

قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا الجليل . .

قال ابن سلام رضي الله عنه: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَاللهِ إِنِّي لأَعْرِفُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ كَمَعْرِفَتِي لاَبْنِي ، وَمَعْرِفَتِي لِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ .

وكان يهود المدينة يعرفون الزمن الذي سيكلَّف فيه محمد ﷺ بالرسالة ، ولذلك كانوا يقولون للأوس والخزرج : أتى زمن رسول سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

* * *

يعرف أساليبهم

سعد بن عبادة ﷺ

كان العرب يقولون : راعنا .. لا يقصدون بها ذمًا ولا شتمًا ، بينما كان اليهود يقولون نفس الكلمة للسب والشتم ، فلمّا سمعت اليهودُ العربَ يستعملون الكلمة استغلوها لشتم النبي ﷺ وسبه ، وقالوا : بدلاً من أن نسبّه سرًا نسبّه علنًا ، فالآن أعلنوا السبّ لمحمد ، فإنه من كلامه ومن كلام العرب ..

فكانوا يأتون النبي ﷺ ويقولون : يا محمد راعنا ..

ويضحكون ، ففطن إلى ذلك سعد بن عبادة ﷺ الذي كان يعرف لغة اليهود ؛ لأنه أنصاري من سكان المدينة ، فقال ﷺ: يَا أَعْدَاءَ اللهِ .. عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ سَمِعْتُهَا مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ ..

فقالوا : ألستم تقولونها ؟!

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤].

* * *

خير اليهود

مخيرق

استعد أهل مكة لحرب المسلمين بعد انهزامهم في معركة بدر التي كانت نتيجتها مفاجأة أليمة لهم ، وخرجوا للقاء المسلمين في معركة أُحُد كي يزيلوا ما لحقهم من عار ، وخرج المسلمون للدفاع عن مدينتهم ، وكان بينهم وبين اليهود معاهدة تُلزم سكان المدينة جميعًا من يهود ومسلمين بالتناصر للدفاع عن المدينة إذا هاجمها مهاجم ، أمّا ، وقد تعرضت لهجوم كفار مكة ، فقد وجب عليهم أن يهبوا لحمايتها مع المسلمين ، ولكنهم لم يفوا بالعهد ، ويلتزموا بما اتفقوا عليه ، وكانت حجتهم في ذلك أن المعركة تقوم يوم السبت ويحرم عليهم أن يقوموا بأي عمل يوم السبت . .

ولكن رجلاً منهم آلمه عدم الوفاء بالعهد ، وهو مخيرق من بني النضير ، الذي ذهب إلى قومه يستنهضهم وفاء بعهدهم والتزامًا بشرطهم قائلاً لبني النضير : والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق . . فأجابوه : ولكن اليوم يوم السبت . .

فقال لهم : لا سبت لكم ، وإنني لخارج معه لمقاتلة عدوه ، فإن أنا قُتلت ، فمالي لمحمد يضعه حيث يشاء . . ومضى الرجل الوفي لعهده ، فقاتل مع المسلمين حتى قُتل ، ولمّا علم قومه بموته أنفذوا وصيته ، فدفعوا بماله إلى رسول الله ﷺ ، فجعلها ﷺ أوقافًا ينفق منها على ما أراه الله سبحانه . .

وكان مخيرق له سبعة بساتين هي : الأعراف والأعواف والصافية ، والدلال ، وبرقة ، وحسني ، ومشربة أم ابراهيم ، فكانت أوقاف في الإسلام ، وكان مخيرق أول مَن حبس مالاً للخير في الإسلام رغم أنه يهودي ، فضلاً عن ضربه المثل لقومه والناس في الوفاء بالعهود ، وأعطى الفرصة أيضًا لمَن نفذ وصيته ، ولم يكتمها فأعطى ماله للمسلمين ، أعطى لهم الفرصة أن يمدحهم الله تعالى بقوله الكريم : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١١٣-١١٥].

* * *
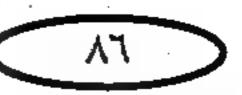
وفاة مسلم في أرض بعيدة

النجاشي ﵁

لَمَّا مات النجاشي ﵁ نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال الرسول ﷺ لأصحابه ﵃ : « **اخْرُجُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ مَاتَ بِغَيْرِ أَرْضِكُمْ** ».

فقالوا : ومَن هو يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : « **النَّجَاشِيّ** ».

وخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع ، وكُشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي ﵁ وصلّى عليه وكبّر أربع تكبيرات ، وقال لأصحابه ﵃ : « **اسْتَغْفِرُوا لَهُ** » .

فقال المنافقون : انظروا هذا يصلي على رجل حبشي نصراني لم يزه قطّ ، وليس على دينه !

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[آل عمران : ١٩٩]

* * *

المودة في القربى مع الأنصار

رُوي أن الأنصار اجتمعوا ذات يوم فراحوا يتذاكرون ما قدّموه للإسلام نصرة له ، وما قدّموه للمهاجرين إيواء وتـأييداً ، فقالوا للعباس ﷺ: فعلنا وفعلنا .. كـأنهم يفتخرون بنصرتهم لرسول الله ﷺ .

فقال العباس ﷺ: لَنَا الفَضْلُ عَلَيْكُم ..

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « يَا بَنِي الأنْصَارِ .. أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً وَضُلاَّلاً فأَعَزَّكُمُ اللهُ وَهَدَاكُمْ بِي ؟ » .

فقالوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ..

فقال ﷺ : « أَفَلاَ تُجِيبُونِي؟ » ..

قالوا : فمَا نَقُولُ يَا رَسُول الله ؟

قال ﷺ : « تَقُولُونَ : أَلَمْ يُخْرِجْكَ قَوْمُكَ فَـآوَيْنَاكَ ، أَوَ لَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ ، أَوَلَمْ يُخْذِلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ؟ » ..

وما زال رسول الله ﷺ يقـول حتى جثوا على الركب ،وهم يقـولون : أموالنا ، وما في أيدينا فداء لله ورسوله ..

فنزل قول الله عز وجل : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾ [الشورى: ٢٢، ٢٣] .

* * *

نحن في الآخرة مع من نحب

ثـوبـــان

نظر رسول الله ﷺ يومًا إلى وجه مولاه ثوبان رضي الله عنه فرآه قد تغير لونه ، ونحل جسمه والحزن بادٍ عليه ، فقال له ﷺ : « يَا ثَوْبَانُ .. مَا غَيَّرَ لَوْنَك ؟» .

فقال رضي الله عنه : يَا رَسُولَ الله .. مَا بِي مِنْ ضُرٍّ وَلاَ وَجَعٍ ، وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَوَلَدِي ، وَإِنِّي لأَكُونُ فِي البَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَلاَ أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لاَ أَرَاكَ ..

فلم يردّ الرسول ﷺ لأن الوحي نزل من السماء ؛ لقد جاء جبريل عليه السلام بهذه الآيات : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

❊ ❊ ❊

شهادة بشهادتين
خزيمة بن ثابت ﷺ
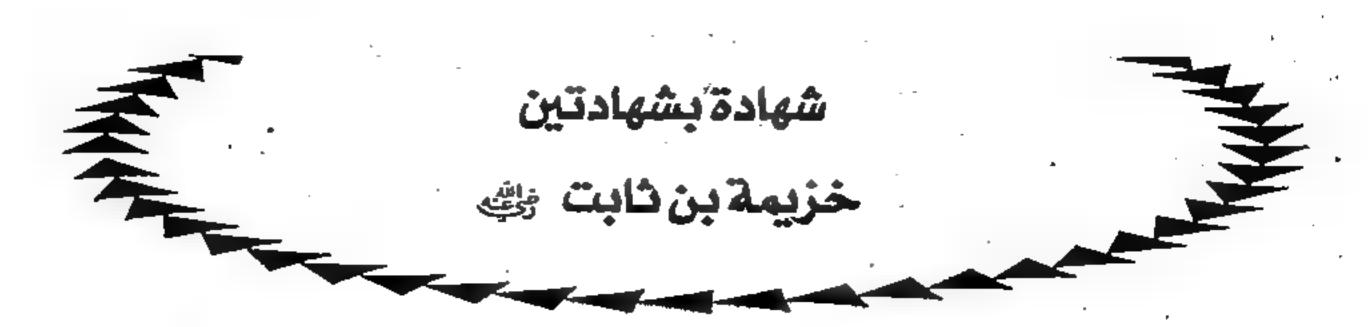
اشترى رسول الله ﷺ فرسًا من أعرابي ، ومشى مع رسول الله ﷺ ليأخذ ثمن فرسه ، وأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي ، واعترض طريقه بعض الرجال الذين لا يعرفون أن الرسول ﷺ قد اشترى الفرس ـ يساومونه في الفرس ، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ، وقال : هل تريد شراء الفرس وإلا أبيعه ؟

فقال ﷺ : « أَوَلَيْسَ قَدِ اشْتَرَيْتُهُ مِنْكَ؟ » . .

فقال الأعرابي : لا ، والله ما بعته لك . .

فقال النبي ﷺ : « بَلَى قَدِ اشْتَرَيْتُهُ » .

فقال الأعرابي : ائتني بشاهد . .

فقال خزيمة بن ثابت ﷺ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ بِعْتَهُ لَه . .

وبعد أن انصرف الناس أقبل رسول الله ﷺ على خزيمة ، وقال : « بِمَ تَشْهَد ؟» ، أي : كيف شهدت على هذا ، ولم تكن موجودًا وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي !

فقال خزيمة بن ثابت ﷺ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللهِ . . هَلْ نُصَدِّقُكَ في كُلِّ مَا يَأْتِينَا مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ونُكَذِّبُكَ في هَذِه ؟!

فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة ﷺ بشهادتين ؛ لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادة رجلين . .

ولما بدأت كتابة القرآن الكريم وُجدت الآية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] لم يكن يحفظ هذه الآية إلا خزيمة ﷺ، وكان كتَّاب القرآن الذين كلفهم أبو بكر الصديق ﷺ بكتابته لا يكتبون الآية إلا إذا شهد رجلان أنهما سمعاها من رسول الله ﷺ ، فأُخذت شهادة خزيمة ﷺ بشهادة رجلين ، وتم تدوين الآية .

* * *

أعطى واتقى
ابن الدحداح

قال عبد الله بن عباس ﷺ: كَانَ رَجُلٌ لَهُ نَخْلَةٌ فَرْعُهَا فِي دَارِ رَجُلٍ فَقِيرٍ ذِي عِيَالٍ، وكَانَ الرَّجُلُ إِذَا جَاءَ وَدَخَلَ الدَّارَ فَصَعَدَ النَّخْلَةَ لِيَأْخُذَ مِنْهَا التَّمرَ فَرُبَّمَا سَقَطَتِ التَّمْرَةُ فَيَأْخُذُهَا صِبْيَانُ الفَقِيرِ فَيَنْزِلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَأْخُذَ التَّمْرَةَ مِنْ فَمِهِمْ، فَإِنْ وَجَدَهَا فِي فَمِ أَحَدِهِم أَدْخَلَ إِصْبَعَهُ حَتَّى يُخْرِجَ التَّمْرَةَ مِنْ فَمِه، فَشَكَا الرَّجُلُ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَلْقَى مِنْ صَاحِبِ النَّخْلَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اذْهَبْ»..

ثُمَّ لَقِيَ صَاحِبَ النَّخْلَةِ، فَقَالَ: «تُعْطِينِي نَخْلَتَكَ المَائِلَةَ الَّتِي فَرْعُهَا فِي دَارِ فُلَانٍ، وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ؟»..

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنَّ لِي نَخْلاً كَثِيراً، وَمَا فِيهَا نَخْلَةٌ أَعْجَبُ لِي ثَمَرَةً مِنْهَا..

ثُمَّ ذَهَبَ الرَّجُلُ وَقَدْ تَمَسَّكَ بِنَخْلَتِه، وكَانَ رَجُلٌ اسْمُهُ ابْنُ الدَّحْدَاحِ يَسْمَعُ حَدِيثَهُ، وَيَعْرِفُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ جَعَلَ فِي مُقَابِلِهَا نَخْلَةً فِي الجَنَّةِ. فَأَسْرَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ.. أَتُعْطِينِي مَا أَعْطَيْتَ الرَّجُلَ نَخْلَةً فِي الجَنَّةِ، إِنْ أَنَا أَخَذْتُهَا وَأَعْطَيْتُهَا لِلرَّجُلِ؟ فَقَالَ الرَّسُولُ: «نَعَمْ». فَذَهَبَ ابْنُ الدَّحْدَاحِ إِلَى صَاحِبِ النَّخْلَةِ وَعَرَضَ أَنْ يَشْتَرِيَهَا مِنْهُ وَظَلَّ يُسَاوِمُهُ فِي ثَمَنِهَا فَرَفَضَ الرَّجُلُ إِلاَّ أَنْ يَأْخُذَ أَرْبَعِينَ نَخْلَةً بَدَلاً مِنْ نَخْلَتِهِ المَائِلَةِ، فَقَبِلَ ابْنُ الدَّحْدَاحِ، وَقَالَ: إِشْهَدْ لِي إِنْ كُنْتَ صَادِقاً..

فَمَرَّ نَاسٌ فَدَعَاهُمْ لِيَشْهَدُوا أَنَّه قَبِلَ أَنْ يَبِيعَهَا بِالأَرْبَعِينَ نَخْلَةً، ثُمَّ ذَهَبَ ابْنُ الدَّحْدَاحِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ.. إِنَّ النَّخْلَةَ قَدْ صَارَتْ فِي مِلْكِي، وَهِيَ لَكَ..

فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ، وَقَالَ: «إِنَّ النَّخْلَةَ لَكَ وَلِعِيَالِكَ»..

وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [الليل: ١-١١].

* * *

التائب

الحارث بن سويد رضي الله عنه

كان الحارث بن سويد رضي الله عنه قد أسلم ، وكان مع رسول الله ﷺ ، لكنه ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم ؛ إذ قارن بين ما كان فيه من نعمة الإسلام وما آل إليه من ضلال الشرك، فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ : هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ فَإِنِّي قَدْ نَدِمْتُ؟ . .

فنزلت الآيات : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٨٦ - ٨٩] . .

حمل الآيات إليه رجل من قومه ليبشره بقبول التوبة وقرأها عليه ، فقال رضي الله عنه: وَاللهِ إِنَّكَ - مَا عَلِمْتُ - لَصَدُوقٌ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ لأَصْدَقُ مِنْكَ ، وَإِنَّ اللهَ لأَصْدَقُ الثَّلاَثَة . .

ثم رجع ، فأسلم إسلامًا حسنًا رضي الله عنه.

* * *

النـادم

أبـو لبـابـة رضي الله عنه

انتهى تحالف بني قريظة مع قريش بالفشل ؛ إذ أنهم كانوا قد خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، وألبوا قريشًا ضده ﷺ واجتمعوا معًا على حزب المسلمين في معركة الخندق . .

وأعان اللهُ المسلمين فرحلت قـريش وحلفاؤها ، وحاصر المسلمـون بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسـألوا رسول الله ﷺ الصلح كما صالح بني النضـير على أن يسيروا إلى أريحا وأذرعات بأرض الـشام ، فرفض رسول الله ﷺ ما طلبـوا ، وعرض أن ينزلوا على حكم سـعـد بن معـاذ رضي الله عنه وكـان حليـفًا لهم فـي الجاهليـة ، فـقـالوا : أرسل إلينا أبا لبابة . . الذي كان مناصحًا لهم ؛ ولأن عياله وماله كانت عندهم .

فبعثه رسول الله ﷺ فلمّا أتاهم سألوه : يا أبا لبابة . . ما ترى ؟أنتزل على حكم سعد ابن معاذ ؟

فأشار أبو لبابة إلى حلقه ليقـول لهم إنه الذبح ، فلا تفعلوا ، وبعدها ندم أبو لبابة ؛ إذ شعـر أنه تعاطف مـعهم على حسـاب دينه أنه مال مع الهـوى ، وجامل أصـدقاءه من اليهود ، وخان إخوانه من المسلمين .

وبينما أبو لبـابة يعذبه إحساسه بالـندم نزل قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢٧ ، ٢٨] .

فقام أبو لبابة فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : وَاللهِ لاَ أَذُوقُ طَعَامًا وَلاَ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَو يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ . .

ومكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا حتى خرّ مغشيًا عليه ، ثم تاب عليه ، فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك . .

فقال : لاَ وَاللهِ لاَ أحلُّ نفسى حَتَّى يكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يَحلُّنِي . .

فجاءه ﷺ فحلّه بيده الشريفة ، ثم قال أبو لبابة رضي الله عنه : إِنَّ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ وَأَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي . .

فقال رسول الله ﷺ : « يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِه » .

* * *

هفوة صحابي

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه
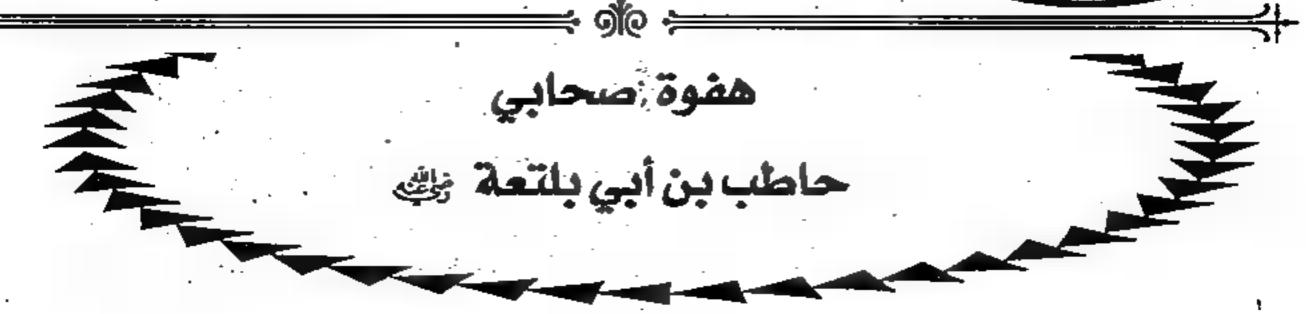
بينما كان الرسول ﷺ يُعد العُدة لفتح مكة وفدت إلى المدينة من مكة سارة مولاة أبي عمر بن صهيب بن هشام ، وأتت رسول الله ﷺ ، فقال لها ﷺ : « أَمُسْلِمَةً جِئْتِ؟ » . .

قالت : لا . .

قال ﷺ : « فَمَا جَاءَ بِكِ؟ » . .

قالت : أنتم الأهل والعشيرة والموالي ، وقد احتجتُ حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتُعطوني وتكسوني . .

فقال ﷺ : « فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْ شَبَابِ أَهْلِ مَكَّةَ؟ » . .

وكانت مغنية ، قالت : ماطُلب مني شيء بعد وقعة بدر . .

فحثّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب ، فكسوها وحمّلوها وأعطوها ، فأتاها حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه وكتب معها كتابًا إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير كي توصله إليهم كتب فيه : مَنْ حَاطِبٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ . . إِنَّ رَسُولَ اللهِ يُرِيدُكُمْ ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ . .

وبعد أن خرجت سارة متجهة إلى مكة نزل جبريل عليه السلام ، فأخبر الرسول ﷺ بما فعل حاطب رضي الله عنه ، فبعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وعمّار بن ياسر ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، والمقداد بن الأسود وأبا مرثد رضي الله عنهم ـ وكلهم كانوا فرسانًا ـ وقال لهم ﷺ : « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ فِيهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ؛ فَخُذُوهُ وَخَلُّوا سَبِيلَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَدْفَعْهُ إِلَيْكُمْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهَا » . .

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان ، فقالوا لها : أين الخطاب ؟

فحلفت بالله تعالى ما معها كتاب ، ففتشوا متاعها ، فلم يجدوا معها كتابًا ، فهمّوا بالرجوع ، فقال عليّ كرّم الله وجهه : وَاللهِ مَا كَذَبْنَا وَلاَ كُذِبْنَا . .

وسلّ سيفه وقال : أَخْرِجِي الكِتَابَ وَإِلاَّ ـ وَاللهِ ـ لأجَزِّرَنَّكِ وَضَرَبْتُ عُنُقَكِ . .

فلمّا رأت الجد أخرجته من شعرها ، فخلّوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب رضي الله عنه فأتاه، فقال له ﷺ : « أَتَعْرِفُ الكِتَابَ؟ » . .

قال : نَعَم . .

قال : « فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتِ ؟ » . .

قال : يَا رَسُولَ الله . . وَالله مَا كَفَرتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلاَ غَشَشْتُكَ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ إِلاَّ وَلَهُ بِمكَّةَ مَنْ يمنع عَشِيرَتَهُ ، وَكُنْتُ غَرِيبًا فِيهِم وَكَانَ أَهْلِي بَيْنَهُم ، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي فَأَردتُ أَن أَتَّخِذَ عِندَهُم يَدًا ، وَقَدَ عَلِمتُ أَنَّ اللهَ يُنْزِلُ بِهِمْ بأسه وَعِقَابَهُ، وَكِتَابِي لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا . .

فصدّقه رسول الله ﷺ ، ونزل قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة : ١] . .

* * *

الخَيْطان
عديّ بن حاتم
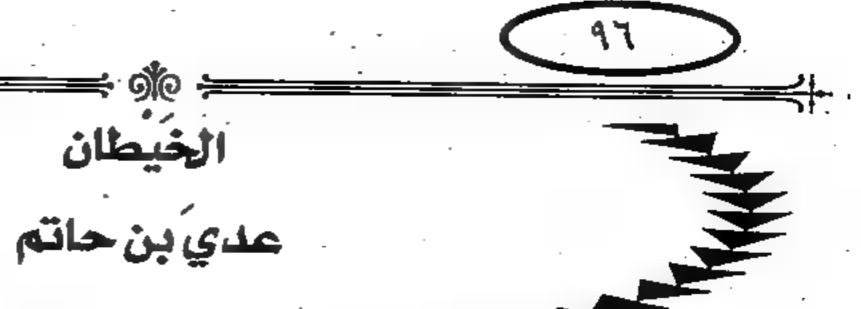
حكى عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعلّمني الإسلامَ ونعتَ لِيَ الصلاةَ كيفَ أُصلي كلَّ صلاةٍ في وقتها، وكذلكَ علّمني الصيامَ فقالَ ﷺ: «إذا جاءَ رمضانُ فكُلْ واشربْ حتَّى يتبينَ لكَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ ثُمَّ أتمّ الصيامَ إلى الليلِ». وذلكَ بعدَ أنْ نزلَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]...

ولَمْ أكُنْ أدري مَا ذَاكَ، ففتلتُ خيطَيْنِ أبيضَ وأسودَ فوضعتُهُما تحتَ وسادي وجعلتُ أنظرُ فيهمَا منَ الليلِ فأجدُهُما سواءً لا فرقَ بينَهُما. فلمَّا أصبحتُ أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يَا رسولَ الله.. كلُّ شيء أوصيتَني بهِ حفظتُ غيرَ الخيطِ الأبيضِ منَ الخيطِ الأسودِ..

قَالَ رسولُ الله: «ومَا منعكَ يَا ابنَ حاتم».

وتبسَّمَ - وكأنَّهُ علِمَ مَا فعلتُ - فقلتُ: فتلت: خيطَيْنِ منْ أبيضَ وأسودَ وجعلتُ أنظرُ فيهمَا منَ الليلِ فوجدتُهُما سواءً..

فضحكَ رسولُ الله حتَّى بدتْ نواجذُهُ ثُمَّ قال: «إنَّ وسادَكَ إذًا لعريضٌ يا ابنَ حاتم أنْ وسعَ الخيطَيْنِ، إنَّما قُلتُ لكَ - منَ الفجرِ - وإنَّما هُمَا: ضوءُ النَّهارِ وظُلْمَةُ الليْلِ».

* * *

اللامــزون

اشتدت بالمسلمين ضائقة ، فخرج النبي ﷺ ونادى في الناس : « اجْمَعُوا صَدَقَاتِكُمْ» ثم قال ﷺ : « مَنْ يَتَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ أَشْهَدُ لَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . .

فجاء عبـد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ،الرجل الغنيّ الذي تميّز بين الصحـابة بسعة رزقه وكثرة مـاله ـ وتصدّق بنصف ماله ، فاندهش عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفعله وصـاح فيه : أَمَجْنُونٌ أَنْتَ !! هَلْ تَعْلَمُ مَا قُلْت ؟!

فقال عبد الرحمن رضي الله عنه :لَيْسَ بِي جُنُونٌ ، إِنَّ مَالِي ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ فَـأَرْبَعَةُ آلاَفٍ أُقْرِضُهَا رَبِّي وَأَرْبَعَةُ آلاَفٍ لِي . .

فدعا الرسول ﷺ لعبد الرحمن رضي الله عنه بالبركة فيما أعطى وفيما أمسك . .

وبعد ذلك جاء الحبـحاب بن عقيل رضي الله عنه ، وهو رجل من فقراء المسلمين ، وقال : يَارَسُولَ اللهِ . . هَذَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ ، لَقَدْ بِتُّ لَيْلَتِي أَجُـرُّ بِالْجَرِيرِ الْمَاءَ حَتَّى نِلْتُ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ فَأَمْسَكْتُ أَحَدَهُمَا وَأَتَيْتُكَ بِالآخَرِ . . فأمره الرسول ﷺ أن يضعه في الصدقات . .

فقال المنافقون : ما أعطى ابن عـوف إلا رياء وسمعة ، وإن الله ورسـوله غنيان عن صاع الحبحاب . . وراح الناس يواصلون مسيرة العطاء ، والمنافـقون مستمرون في الانتقاص من أعمالهم واتهـامهم بما زينت لهم قلوبهم الحاسدة ؛ إذ جاء رجل أسـود بناقة حسناء ، وقال : يَا رَسُولَ اللهِ . . دُونَكَ هَذِهِ النَّاقَةَ . .

فغمزه منافق قائلاً : هذا يتصدق بهذه ؛ فوالله إنها خير منه . .

وسمعه رسـول الله ﷺ ، فقال له : « كَذَبْتَ . . بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَمِنْك » قالها ﷺ ثلاثًا . . .

فأنزل الله عز وجل قوله الكريم : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩] .

* * *

الذين يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ

الأقرع بن حابس

أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ في عام الوفود ،ولم يكن الإسلام هو الدافع لها جميعًا على القدوم إلى رسول الله ﷺ وإنما جاء بعضها إيمانًا بالإسلام ،وجاء الآخر بدافع التقليد وجاءت وفود بدافع الخشية وجاء البعض لأنه لا يريد أن يتأخر عمّا تقدّم إليه الناس . .

ومن بين هذه الوفود وفد بني تميم ، وكانت أخلاق البداوة قد أضفت على تصرفاتهم مسلكًا خشنًا ، وكان يتنازع رئاسة الوفد رجلان من زعماء بني تميم هما الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد كل منهما يدّعي لنفسه الفضل ، وكلاهما يحسب نفسه كبير القوم ، وكلاهما معه أنصاره ومؤيدوه ، وخرج رسول الله ﷺ إليهم مستقبلاً ـ كما تعوّد ﷺ أن يخرج لاستقبال الوفود ـ ولم تخفت أصواتهم ، وإنما هي عالية وصخبهم يتزايد ، ولم يمنحوه ﷺ ما يليق به من التوقير والإجلال بخفض الصوت والتأدب في الحديث في حضوره وفي مجلسه ﷺ . .

فنزل قول الله عز وجل :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

ويبدو أن الأقرع بن حابس لم يستوعب الدرس ، ولم يلتزم السلوك الذي يليق بالتعامل مع رسول الله ﷺ ؛ إذ جاءه ﷺ بعدها وناداه من وراء الحجرات : يا رسول الله . . إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين . .

فرد عليه رسول الله ﷺ قائلاً : « ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » . .

فنزل قول الله عز وجل :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٤ ، ٥].

* * *

الذين امتحن الله قلوبهم بالتقوى والمغفرة

ثابت بن قيس رضي الله عنه

حينما جاء وفد بني تميم إلى المدينة وارتفعت أصواتهم ، فكانت تعلو فوق صوت رسول الله ﷺ ونزل قول الله عز وجل :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ إذ بالصحابي الجليل ثابت بن قيس رضي الله عنه يتهم نفسه بالذنب ، ويتشكك في عمله ، ولا يطمئن على مصيره ؛ ذلك أنه كان رجلاً جهير الصوت ، فكان صوته يرتفع ، وهو يتكلم دون أن يدري ، فاعتقد أنه قد حبط عمله ، وضاع ثوابه كما نصت الآية على ذلك ، وذهب إلى بيته ، ونادى زوجته جميلة بنت عبد الله بن أبيّ بن سلول رضي الله عنها وقال : أَنَا من أَهْلِ النَّارِ،لَقَد حَبطَ عَمَلي ..

فقالت : لِمَاذَا تَقُولُ ذَلكَ ؟! مَاذَا فَعَلْت ؟!

فقال رضي الله عنه : أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِيَ عَلَى رَسُولِ الله ..

ثم جلس في بيته يعاني القلق والحزن و وفجأة صاح في زوجته جميلة : شُدِّي عَلَيَّ الضَبَّةَ « ما يُفتح به باب البيت » بِمسْمَارٍ فَإِنِّي لاَ أَخْرُجُ حَتَّى يَتَوَفَّانِي اللهُ أَوْ يَرْضَى عَنِّي رَسُولُ الله ..

ومكث رضي الله عنه في بيته أيامًا لا يراه رسول الله ﷺ ،وكان من عادته ﷺ أن يتفقد الصحابة ،ويسأل عمّن يغيب منهم عن مجلسه ﷺ ، فلمّا عرف أنه في بيته يبكي ، ولا يخرج استدعاه ﷺ وسأله : « مَا يُبكِيكَ يَا ثَابت ؟ » ..

فقال : أَنَا صَيِّتٌ « عالي الصوت » وأَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيّ :﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ..

فقال رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميدًا أو تقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟» ..

قال : رَضِيتُ بِبُشْرَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَلاَ أَرْفَعُ صَوْتِي أَبَدًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ..

ونزل بعد ذلك قول الله عز وجل :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات :٣].

* * *

صحابي وبيعة
أبو سنان الأسدي رضي الله عنه
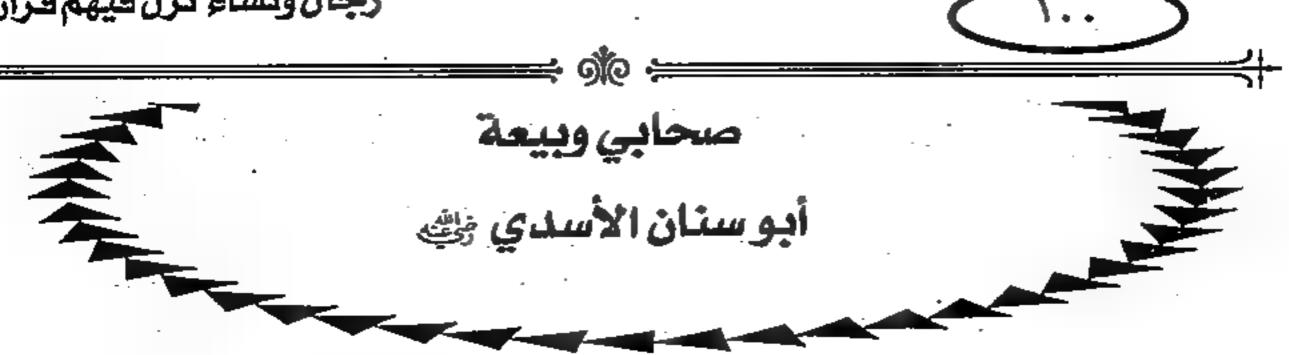
اشتد شوق المهاجرين بالمدينة إلى وطنهم مكة وإلى بيت الله الحرام ، يتمنون العمرة والطواف ، فلمّا كان العام السادس الهجري ، وأخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى في رؤياه أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسهم ، ومقصّرين لا يخافون ، تهللت نفوسهم فرحًا ، وارتفعت أصواتهم مهلّلين بحمد الله سبحانه ومكبّرين ، وانتشر الخبر في المدينة ، فلمّا استنفر رسول الله الأعراب ليخرجوا معتمرين آمنين خرج معه ﷺ بعضهم مع المسلمين الذين كانت عدتهم ألفًا وخمسمائة . .

وحين علمت قريش بخروجهم صممت ألاّ يدخلوا مكة رغم علم القرشيين بأن المسلمين خرجوا يسوقون الهدي ،وهدفهم تعظيم البيت وأداء العمرة ، رغم ذلك خرجت جيوشهم في طريق المدينة ، لكن رسول الله ﷺ لمّا علم بذلك آثر أن يتجنّب القتال ، وأن يجنّب البيت الحرام سفك الدماء ، فسار في طريق غير الطريق الذي يلتقي فيه بجيش قريش ، لا جبنًا ولا فرارًا ، ولكن تحقيقًا لهدف يأمل ﷺ في تحقيقه ، وهو الإعلان عن رغبة المسلمين في حقن الدماء وألاّ تُراق في بيت الله سبحانه ، وساروا في طريق وعر . .

وفجأة توقفت ناقة الرسول ﷺ ، ولم تشأ أن تسير ناحية مكة ، فأدرك ﷺ أنها حُبست ، وقال لأصحابه : « حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيل » يعنى : منعها الله سبحانه عن التقدم نحو مكة كما منع فيل أبرهة ،وهذا يعنى : أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يتريثوا ، فوقف المسلمون عند الحديبية ، وكان بينهم وبين أهل قريش سفراء ، فاستقبل النبي ﷺ سفراء قريش ثم أرسل سفيره عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي نزل على أبان بن سعيد ، وطلب جواره حتى لا تؤذيه قريش ، فأجاره وأخذه إلى قريش في ناديهم ، فقالوا له : لن يدخل محمد مكة ، ولن يطوف بالبيت ، وإذا شاء عثمان فليفعل . .

لكن عثمان رضي الله عنه أقسم ألاّ تطأ قدماه البيت ما دام رسول الله ﷺ ممنوعًا ثم اتصل في غفله من قريش بالمسلمين المستضعفين الذين مُنعوا من الهجرة إلى المدينة أو لم يقدروا عليها ، وهمس في آذانهم مُحمسًا ومُشجعًا معلنًا لهم أن ساعة الخلاص قد اقتربت ، فلمّا علمت قريش بما فعل رضي الله عنه قامت بحبسه ، وغاب عثمان رضي الله عنه عن المسلمين ثم انتشر بينهم أن عثمان قد قُتل . .

فجاء إلى رسول الله ﷺ أبو سنان الأسدي رضي الله عنه وقال : امْدُدْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللهِ . .

فقال ﷺ : « عَلامَ تُبَايِعُنِي يَا أَبَا سَنَان » . .

فقال : عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ بَذْلِ الرُّوحِ وَالصَّبْرِ وَالاسْتِبْسَالِ وَالثَّأْرِ لِعُثْمَان . .

فمدّ الحاضرون أيديهم وبايعوا كما بايع أبوسنان رضي الله عنه ، ثم توافد بقية المسلمين رضي الله عنهم وحضروا إلى حيث كان يجلس رسول الله ﷺ تحت الشجرة ومدّوا أيديهم وبايعوه ﷺ بيعة الرضوان التي بدأها الصحابي الجليل أبو سنان الأسدي رضي الله عنه ، والتي مدحها الله عز وجل ومدح رجالها بقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] .

* * *

تقوى الله مَخْرَج

عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه

أسر المشركون ابن الصحابي عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه في إحدى المعارك ، فأتى الرجل رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه ما ترتب على أسره من فاقة ، فقال : إنَّ العَدُوَّ أَسَرَ ابنِي وَتَجرَّعْتُ الأَلَمَ ، فَمَا تَأمُرُنِي ؟

فقال النبي ﷺ : « اتَّقِ اللهَ وَاصْبِر » .

فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إنَّ رَسُولَ اللهِ أَمَرَنِي وَإيَّاكِ أَنْ نَسْتَكْثِرَ مِنْ قَوْلِ : « لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ » . .

فقالت امرأته نِعْمَ مَا أَمَرَنَا به . .

وأخذا يقولان ذلك ، وإن هي إلا أيام قليلة إلا ودخل عليهما ابنهما الأسير يسوق أربعة آلاف شاة ، فسألاه فقال رضي الله عنه : غَفَلَ عَنِّي العَدُوُّ فَسُقْتُ الغَنَمَ وَجِئْتُ بِهِ إِلَيْكُم . .

ونزل قول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

* * *

الذين فاضت أعينهم بالدمع

رهبان الحبشة ﷺ

لما اشتد إيذاء كفار قريش بالمسلمين وتفننوا في مضايقتهم وإلحاق الأذى بهم وحزن رسول الله ﷺ ذو القلب الكبير لما يكابده المؤمنون من مشقة ، وهو الرءوف بهم والرحيم، فكر ﷺ في وسيلة تخفف عنهم آلامهم ، فرأى أن يبعث بهم إلى النجاشي ملك الحبشة الذي يدين بالمسيحية ،وقال ﷺ : « إِنَّهُ مَلِكٌ صالحٍ لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ فَاخْرُجُوا حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لِلمُسْلِمِينَ مَخْرَجا » . .

واتجه المسلمون إلى الحبشة ، وكان منهم جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ﷺ ، كما كان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ الذين قال فيهم : « إِنَّهُمَا أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عليهما السلام ». . .

كان المسلمون يتسللون في ظلمة الليل حتى لا تفطن لهم قريش ، وقد قيّض الله سبحانه وتعالى لهم ﷺ عندما وصلوا إلى ميناء شعيبة ـ سفينتين تجاريتين مبحرتين إلى الحبشة ، فركبوا فيهما ،وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة ، وكان مجموع المهاجرين اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، ويرأسهم عثمان بن عفان ﷺ أجمعين . .

ولما وصل المهاجرون إلى الحبشة ووردوا على النجاشي أحسن استقبالهم وأكرمهم ثم قال لهم : تَعْرِفُونَ شَيْئًا مِمَّا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ ؟

فقالوا : نعم . .

قال : اقرؤوا . . .

وكان حوله القسيسون والرهبان ،فكان كلما قرؤوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق . .

وأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣].

* * *

عتاب للنبي ﷺ
ابن أم مكتوم رضي الله عنه

اجتمع حول رسول الله ﷺ نفر من أهل قريش كان فيهم عتبة بن ربيعة ، والحكم بن هشام ،والعباس بن عبد المطلب ، وأبيّ بن خلف ، وأخوه أمية . وهم من زعماء قريش وذوي الرأي والمكانة فيها ، ودار بينه ﷺ وبينهم نقاش شعر منه ﷺ أن القوم يريدون أن يتفهموا دعوته ، فطمع ﷺ في إسلامهم ، وراح يدعوهم إلى الله سبحانه . .

وفجأة اقتحم عليهم لقاءهم عبد الله بن أم مكتوم وكان رجلاً مكفوف البصر . ويبدو أنه لم يشعر بقربه من رسول الله ﷺ فصاح : يَا رَسُولَ اللهِ . .عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ . .

والرسول ﷺ مشتغل بالقوم الذين كان يحادثهم قبل مجيئه رضي الله عنه ،ويبدو أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه لم يقدّر ما كان يشغل الرسول ﷺ ويأمل فيه من أن يشرح الله سبحانه صدور محادثيه للإسلام فيُعفِي المسلمين من مضايقاتهم ، وحربهم للإسلام ، فانصرف ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه واستمر في حديثه معهم ، لكن ابن أم مكتوم رضي الله عنه صاح من جديد : يَا رَسُولَ اللهِ . .عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ . .

فظهر الضيق في وجه رسول الله ﷺ لمقاطعة الرجل لحديثه ﷺ ،وعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم ، فأنزل الله عز وجل . قوله :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ١ ـ ١٠].

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا لقيه ،ويقول : « مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي» .

* * *

الذين يرجون رحمة الله سبحانه

عبد الله بن جحش

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش رضي الله عنه في سرية في شهر رجب ومعه ثمانية من المهاجرين رضي الله عنهم ، وكتب له كتابًا وأمره ألاّ ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه . .

وسار عبد الله رضي الله عنه يومين ثم فتح الكتاب وقرأه ، فإذا فيه : « إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ النَّخْلَةَ » اسم مكان بَيْنَ مَكَّةَ والطَّائِفُ « فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وتعلم لَنَا مِنْ أَخْبَارِهَا » . .

فلمّا قرأ عبد الله رضي الله عنه الكتاب ، قال : سَمْعًا وَطَاعة . .

ثم قال لأصحابه : قَدْ أَمَرَنِي رَسُولَ الله ﷺ أَنْ أَتَّجِهَ إِلَى نَخْلَةَ أَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا حَتَّى آتِيه مِنْهُمْ بِخَبَرٍ ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ ، فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ . .

فمضى وأصحابه جميعًا ، وفي مكان يُقال له « بحران » انفصل عنهم سعد بن أبي وقاص » وعتبه بن غزوان رضي الله عنهما ؛ إذ ضل بعير لهما كانا يتبادلان ركوبه فتخلفا في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم حتى نزلوا بنخلةَ كما أمرهم رسول الله ﷺ . .

وفي نخلةَ استقر عبد الله ورجاله رضي الله عنهم وإذا بقافلة لقريش فيها عمرو بن الحضرمي تحمل تجارة تمر بهم ، وتشاور عبد الله مع رجاله رضي الله عنهم ، وكانوا في آخر يوم في رجب ، فقالوا : لئن تركتم هذه الليلة ليدخلُن الحَرَم « منطقة مكة » ولا يجوز قتالهم » ولئن قتلتموهم » فيكون ذلك في الشهر الحرام . .

ولكنهم شجعوا أنفسهم بعد تردد وأجمعوا على قتل مَن يقدرون عليه منهم » وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي رضي الله عنه عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، فكان أول مَن قتله المسلمون ، واستولى على عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان كأسيرين ، وفر الباقون . .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ » فقال لهم : « مَا أَمَرْتُكُم بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ » . .

فندم القوم على ما فعلوا وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

واستغلت قريش الموقف ، فقال أهلها : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدماء ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . .

أمّا اليهود فلم تفتهم الفرصة ، واستعانوا باسمَي المحارب المسلم والقرشي القتيل في الحرب النفسية ضد المسلمين ؛ فقالوا : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله ، قالوا: عمرو يعني عمرت الحرب ، والحضرمي: يعني حضرت الحرب ، وواقد: يعني وقدت الحرب . .

وأكثر الناس في الحديث ، فأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

فلمّا استمع المسلمون لما نزل من القرآن الكريم خفّ عنهم ما كانوا فيه من شدة ، وزال ما عانوه من قلق ، وأرسلت قريش فداء الأسيرين ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا نَفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبه بن غزوان « فَإِنَّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا ، فَإِنْ تَقْتُلُوهُمَا نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُم » . .

فقدم الرجلان فقبل رسول الله ﷺ فدية أسيري قريش .

ولمّا استقرت نفس عبد الله بن جحش وأصحابه ﷺ طمع في ثواب الله ، فقال ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ . . أَنَطْمَعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةٌ نُعْطَى فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ ؟

فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

فوضعهم الله سبحانه من ذلك على أعظم رجاء .

* * *

شَريف يتزوج أمَة

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

رجلان في زمن النبي ﷺ فكّر كلاهما في الزواج ، أمّا أولهما فهو أبو مرثد الغنوي رضي الله عنه: توجه إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يتزوج من امرأة قرشية ذات حظ من جمال لكنها مشركة اسمها عناق . .

أمّا الآخر فهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كانت له جارية سوداء غضب عليها فلطمها ، وأسف على ذلك وندم ، وتوجه إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها ، فقال له الرسول ﷺ « مَا هِيَ يَا عَبْدَ الله ؟ » . .

فقال رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله . . هِيَ تَصُومُ وَتُصَلِّي وَتُحْسِنُ الوُضُوءَ ، وَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُه . .

فقال ﷺ : « يَا عَبْدَ الله .. هَذِه مُؤْمِنَة » .

فقال عبد الله رضي الله عنه: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لأُعْتِقَنَّهَا وَأَتَزَوَّجَنَّهَا . .

وفعل فطعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمَة . .

وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله عز وجل ، قوله : ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] .

* * *

وكسب الإسلام رجلاً
طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

حين أدركت قريش أن دين محمد ﷺ يهددها في مكانتها ، وأنه لابد وأن تواجهه بكل وسيلة كان من هذه الوسائل أنها قامت بحصر مَن اتبعه ﷺ ثم قال قائلهم : قيِّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه ..

واختاروا طلحة بن عبيد الله لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأتاه طلحة في مجموعة من الرجال ، فقال أبو بكر رضي الله عنه لطلحة : إلاَمَ تَدْعُونِي ؟

قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزّى ..

قال أبو بكر رضي الله عنه : وَمَا اللاَّت ؟!

قال طلحة : ربنا .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : وَمَا العُزَّى ؟

قال طلحة :بنات الله ..

فقال أبو بكر رضي الله عنه : فَمَنْ أُمُّهُم ؟!

فسكت طلحة ولم يجبه ، وقال لأصحابه : أجيبوا الرجل ..

فسكت القوم ، فقال طلحة : قُمْ يَا أَبَا بَكْر ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ..

وأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٨] ..

* * *

نســـاء
مــن
آيات القرآن الكريم

مقدمة

لقد جعل الله عز وجل للنساء حقوقًا مثلما جعل للرجال حقوقًا ، وخلق حواء من آدم عليهما السلام لتبدأ مسيرة الحياة من أجل استخلاف الأرض وعمران الكون . .

ولقد تحدث سبحانه في كتابه الكريم عن النساء مثلما تحدث عن الرجال ، وإذا كان قد ذكر رجلاً واحدًا باسمه ـ وهو سيدنا زيد بن حارثة ـ فإنه سبحانه وتعالى قد ذكر أيضًا سيدة واحدة باسمها هي السيدة مريم ابنة عمران ، وكان ذلك لحِكَم جليلة استوعبها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأشار إليها المفسرون . .

ثم أشار عز وجل إلى رجال وسيدات عُرِفوا من خلال الوقائع وسياق الأحداث ، وصار التعرف عليهم ـ بعد ذلك ـ ضرورة لفهم آيات القرآن الكريم والاستفادة من هديه العظيم . .

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من النساء اللاتي أنعم الله عليهن ، فأشار إليهن في كتابه الكريم ، فشملهن بالتكريم ، وضمن لهن الخلود ، وأي تكريم أفضل من حديث الله عنهن ؟! وأي شرف يداني هذا الشرف العظيم ؟!

وبقدر ما اكتسبن الشرف ، فقد ضمن الخلود لأن الله سبحانه ضامن لذلك حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] . .

إن الحديث عنهن عبادة . . وإن التأسي بهن هداية ، وإن التأمل في سيرتهن تعلم . .

وفي رحاب القرآن الكريم ، وفي هدى آياته العظيمة نتلمس الطريق لنلتقي عند الفضليات من النساء ليكون لنا ما أمّلنا من عبادة وتعلم وهداية .

والله هو الهادي إلى سواء السبيل ..

حـــواء ..
السيدة الأولى

الخليفة :

لمّا أراد الله عز وجل للكون أن يعمر خلق آدم عليه السلام واستخلفه في الأرض ، وحين أعلمَ اللهُ الملائكةَ بذلك توقعوا أن يفسد آدم وذريته في الأرض كما أفسد فيها الجن من قبل : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] إذ غاب عن علمهم ما شاء الله ، وأراده ..

وهيأ الله آدم عليه السلام ليعيش فوق الأرض ويستعمرها ، فأشرقَ عليه بقبس من علمه ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ، ونفخ فيه من روحه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [ص: ٧٢] ، وصار مهيئًا ليكون خليفة في أرضه ، وأسجدَ له ملائكته سجود تحية وتكريم لأن الله خلقه بيده ، ولأن فيه من روح الله نفخه مباركة طيبة تمثّل جانب الخير، والنور ، والفضيلة ..

وسجد الملائكة إلا إبليس الذي تعالى على آدم عليه السلام بأصله الناري مقارنًا إياه بأصل آدم الترابي ، وحسده على تكريم الله تعالى له ، فغوى وعصى ، فطرده الله من رحمته ، بينما أقبَل على آدم عليه السلام ،فأسكَنه الجنة ، وأفاض عليه من فضله قبسًا من علمه ونفخة من روحه ، وتكريمًا تجلّى في إسجاد الملائكة له .

فنشأ الحسد والعداء في قلب إبليس لآدم عليه السلام الذي اعتقد أنه ما طُرِد من رحمة الله تعالى إلاّ بسبب آدم عليه السلام ، وسكن في قلبه عداء يستمر قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

الله يخلق حواء لتزيل الوحشة عن آدم عليه السلام :

ويتوالى كرم الله تعالى على آدم عليه السلام .. لقد أحسّ بالوحشة ؛ فخلق الله تعالى له السكن ،ذلك أنه عليه السلام نام نومة فاستيقظ فرأى عند رأسه امرأة قاعدة ذات حُسن وجَمال ، خلقها الله من ضلعه الأيسر دون أن يحس ألمًا ..

فسألها آدم عليه السلام : مَنْ أنتِ ؟

قالت : امرأة . .

قال : ولِمَ خُلِقْت ؟

قالت : لتسكن إليّ . .

وهنا تدخل الملائكة يسألونه ليتعرفوا على مدى علمه : ما اسمها يا آدم ؟

قال عليه السلام : حوَّاء . .

قالوا : ولِمَ كانت حوّاء ؟

قال عليه السلام : لأنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيّ . .

فسألوه ثانية : ولِمَ سُمِّيَت امرأة ؟

قال عليه السلام : لأنَّهَا مِنَ المَرْءِ أُخِذَتْ .

في الجنة :

وقال الله تعالى لآدم عليه السلام : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] أباح الله تعالى لآدم وحواء عليهما السلام الجنة إلا شجرة استثناها رمزًا لاختبار الإرادة ، وله أن يختار ليكون الجزاء ، وربما أدرك آدم عليه السلام سر اختلافه عن الملائكة إذ أنهم لا يختارون ، وإنما هم خُلقوا لطاعة الله تعالى ، أمّا هو وذريته ، فإن طاعة الله تعالى تكون باختيارهم . .

وعاش آدم عليه السلام في الجنة مستمتعًا مع حواء بما أنعمَ الله تعالى به عليهما من نِعم، واختارا طاعة ربهما سبحانه ، فلم يقتربا من الشجرة التي نهاهما عنها ، وكم كانت سعادة آدم وحوّاء عظيمة حيث يتنعمان من الجنة حيث شاءا إذ لم يكن تحريم الشجرة مانعًا من التمتع بغيرها من الطيبات .

وسوسة الشيطان :

لكن لم يكن إبليس ليغفل عنهما ، ولم يفطنا ، اقترب منهما مبديًا نصحه وعطفه،وقال : إن هذا النعيم ينتهي بالموت والفَناء ، وتلك الشجرة المحظورة سبيل إلى البقاء والخلود . . قال إبليس : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، قال آدم عليه السلام : نَعَمْ ، وقالت حوّاء : نعم . .

وامتنع آدم وامتنعت حوّاء ، وأعلَنا لإبليس أنهما مطيعان لله تعالى ، وأن الله تعالى نهى ، وهما منتهيان . .

فقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠] ورفض آدم ورفضت حوّاء . .

لكنه الإصرار من إبليس الذي اجتهد في استمالتهما ، وأظهرَ عطفًا وشفقة عليهما ، وأقسمَ لهما أنه من الناصحين ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[الأعراف : ٢١] . .

وخُدِعَ آدم وخُدعت حوّاء ، أكلا من الشجرة المحرَّمة ، وناداهما ربهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف : ٢٢] . .

وأدرك آدم كما أدركت حواء أنهـا الخطيئة ، فكان الندم والاستغفار ، وكان العفو من الله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٨] ، ثم توجها إلى الله تعالى ، وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف : ٢٣] .

الحياة فوق الأرض :

تاب الله تعالى عليهما ، ولكن كان أيضًا عليهما أن يتركا الجنة وينزلا إلى الأرض ، ونزل آدم ومعه حواء عليهما السلام إلى الأرض ليبدآ فصلاً جديدًا من حياتهما ، إنها الحياة التي قدّرها الله تعالى في علمه وأعدّهما لها لاستخلاف الإنسان من ذريتهما في الأرض ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . .

وبدأت الأسرة في الأرض حياة التكاليف لهما ولذريتهما ، عليهم أن يسعوا في الأرض متبعين هداية الله تعالى التي تمثلت في إحدى وعشرين صحيفة أنزلها الله تعالى على الإنسان الأول والنبي الأول آدم عليه السلام . .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٩] . . .

وانتقلت المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان - أو بين الخير والشر - إلى الأرض ميدانها الأصيل .

* * *

السيدة سارة
أم الأنبياء

أبو الأنبياء :

نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام له منزلة خاصة بين الأنبياء عليهم السلام ، فهو الرجل الذي استطاع بفكره أن يتوصل إلى عبادة الله تعالى دون أن يتنزل عليه وحي من السماء ، وإنما هداه تفكيره إلى أن يرفض عبادة الأوثان التي يعبدها قومه ، ويبحث عن الله تعالى حتى اهتدى إليه ، فتنزلت هداية السماء على قلبه ؛ فيعرف الله تعالى ثم يعبده ثم يكون نبيًا ورسولاً من أولي العزم يدعو إلى الحنيفية السمحاء .

ومن هنا كان خليل الله ، ولقد كرّمه الله تعالى بأن جعل كل الأنبياء من بعده من نسله عليه السلام حتى اكتملت رسالة الله تعالى ببعثة سيدنا محمد ﷺ .

ينتقل مع زوجته سارة :

وإن إبراهيم عليه السلام الرجل العاقل لابد وأن يُحسِن انتقاء زوجه ، فكان أن اختار ابنة عمه السيدة سارة لتكون شريكة عمره ومعينة له في طاعة ربه ونشر رسالته . .

ولقد صحبته سارة رحلة العمر أو رحلة الإيمان ، وتنقلت حيث تنقّل بحثًا عن الأمان ونشرًا لدين الله تعالى ، فلمّا هاجر عليه السلام من بابل هاجرت معه ، وعاشت معه في بلاد الشام حيث تنقّل حتى استقر في مدينة شكيم « نابلس الآن » ، كما ذهب إلى بلاد اليمن ، ولكنه كان يعاني حينئذ القحط والجوع ، فقرر عليه السلام أن يهاجر إلى مصر .

معجزات على أرض مصر :

كان الشام يقاسي جدبًا ، فاتجه إبراهيم عليه السلام إلى مصر ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط عليه السلام ، اتجهوا إلى مصر حيث كان يحكمها العماليق الذين أطلق عليهم الرومان « الهكسوس » . .

وفي مصر عرف إبراهيم عليه السلام أن حاكمها يستولي على السيدات الجميلات ، فقرر أنه ربما يقتله إذا عرف أن سارة زوجته ؛ كي تخلص له ، وذلك لما تتمتع به من حُسن وجمال ، وقد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حوّاء أجمل منها إلى زمانها ، لذلك اتفق معها على أن تقول إنها أخته ، وليست زوجته حتى لا يقتله الحاكم وثقةً في أن الله سيعصمها إذا أرادها الحاكم بسوء . .

ولقد صحّ ما توقعه إبراهيم عليه السلام حيث علم الحاكم بوجودهما ، وقد قيل له :

إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس . .

فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : مَن هذه ؟

قال عليه السلام : هِيَ أُخْتِي . .

وذهب إليها وقال : يَا سَارَةُ . . إِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّك أُخْتِي ، فَلاَ تُكَذِّبِينِي . .

ولذلك رُوي عن رسـول الله ﷺ أنه قـال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ إِلاَّ ثَلاَثَ كِذْبَاتٍ : ذَلِكَ فِي ذَاتِ اللهِ قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ، وقوله لِلْمَلِكِ حِينَ أَرَادَ امْرَأَتَهُ : هِيَ أُخْتِي ، فَهِيَ أُخْتُهُ فِي دِينِ اللهِ » . .

وطلبها الملك ، فقام عليه السلام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يحمي أهله وأن يردّ بأس هذا الذي أراد أهلَه بسوء ، وقامت سارة ﷺ حين أراد الملك أن ينال منها أمرًا فتوضأت ثم دخلت في الصلاة ودعت الله عز وجل أن يحميها من السوء ، فعصمها الله وصانها إذ إنَّ الملك توقَّفَت يداه ، فقال : ادعي الله لي ، ولا أضركِ . .

فدعت الله فأطلق يده ، ثم حاول مرة أخرى فشعر الملك أنه لا يملك يده ولا يسيطر عليها ، وطلب أن تدعو فأطلق الله يده ، ثم حاول الثالثة ، وأخذ فطلب منها مثلما طلب في المرتين السابقتين ، ودعت سارة مثلما دعت ، فأطلق الله يده . .

فدعا رجاله ، وقال : إنكم لم تأتوني بإنسان ، وإنما أتيتموني بشيطان . .

وصرفها . .

ولذلك ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم عليهن السلام ، ولكن ما اتفق عليه الجمهور أنهن صديقات .

العودة إلى فلسطين :

وخرج الخليل عليه السلام من مصر بصحبة زوجته سارة وابن أخيه لوط عليه السلام ، ومعه هدايا الملك التي منحها له تقديرًا وإجلالاً ، وكان من عطاء الملك السيدة هاجر عليها السلام ، وتوجه إلى حيث يقيم في مدينته الخليل ، بينما توجه لوط عليه السلام إلى مدينته سدوم ينشر دين الله .

زواج هاجر وأحزان سارة :

ولمّا كان إبراهيم عليه السلام يتشوق إلى ولد يؤنس وحدته ويساعده في شيخوخته ، وكانت السيدة سارة حزينة لأنها لا تستطيع أن تحقق له رغبته ، فاقترحت عليه أن يتزوج

هاجر إذ ربما تستطيع أن تحقق له ما عجزت هي عن تحقيقه ، ولقد اعترض إبراهيم عليه السلام على ذلك رعاية لمشاعرها لما يكنّه لها من حب وإجلال ، فهي ابنة العم وشريكة العمر، وهي رفيقته في دين الله ، لكنها أصرت على اقتراحها ، فتزوج الخليل عليه السلام هاجر ، وأكرم الله خليله بأن رزقه إسماعيل عليه السلام ، ولمّا تأذّت زوجته سارة لإحساسها بالحرمان ولإحساسها بالعجز صحب الخليل عليه السلام هاجر ووليدها ورحل إلى مكة حيث عاشت هاجر ووليدها الذي كبر ، وتزوج وأنجب وصار أبا للعرب الذين يُبعث منهم محمد بن عبد الله ﷺ.

أكرم الله سارة بإسحاق :

استقر الخليل عليه السلام في فلسطين داعيا إلى الله تعالى ، واستقر ابن أخيه لوط في سدوم يواجه شرور أهلها وآثامهم .وذات يوم قدم على إبراهيم عليه السلام ثلاثة رجال أحسن استقبالهم كعادته في الترحيب بالضيفان ، فهو كما عُرف عنه أبو الضيفان ، وقدّم لهم عِجلاً مشويًا وقرّبه منهم، فلم يقتربوا منه ، فأوجس منهم خيفة وحسبهم أعداء ، لكنهم أفهموه أنهم لا يأكلون لأنهم ملائكة وأنهم متجهون إلى سدوم لإهلاك أهلها ، ولكنهم طمأنوه على لوط والمؤمنين معه ، فهم ناجون بإذن الله تعالى . .

ثم بشّروه بغلام حليم من زوجته سارة ، فتعجّبَ إبراهيم عليه السلام لأنه صار له من العمر مائة سنة وبلغت زوجته التسعين فضلاً عن أنها عقيم ، حتى إنها ضحكت حين سمعت البشرى إذ كانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت بذلك عادة الكرام في ذلك الزمان ، ضحكت ، وقالت : ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾[هود : ٧٢] . .

ولكن الملائكة قالوا : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[هود : ٧٣] . . ولم يَحُل الحول على سارة إلا وقد حملت ، فلمّا وضعته أسمته « يصحق » بمعنى يضحك ، وذلك لأنها ضحكت حين سمعت البشرى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[الصافات : ١١٢].

وهكذا أكرم الله تعالى سارة بعد أن أكرم هاجر ، ورزق الله كلتيهما ابنًا صالحًا ونبيًا كريمًا ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون إسحاق عليه السلام نبيًا ومن بعده ابنه يعقوب عليه السلام نبيًا ثم يتوالى موكب الأنبياء الكرام من ذرية إسحاق عليه السلام . .

وحقًا تستطيع أن تقول: إنه كان إبراهيم عليه السلام أبًا للأنبياء فإن السيدة سارة أمهم عليهم الصلاة والسلام .

* * *

السيدة هاجر..
أم إسماعيل

إبراهيم في مصر :

حينما جاء إبراهيم عليه السلام إلى مصر ، وأقام بها زمنًا حاول أن ينشر دين الله تعالى بها ، لكن أدرك أن ذلك الأمر صعب بسبب نفوذ الكهنة وتأثيرهم القوي في الناس والحكام ؛ إذ كانوا يحاربون مَن يقترب من دينهم بسوء ، فحالوا بين إبراهيم عليه السلام وبين نشر دعوته حفاظًا على نفوذهم وإبقاء على امتيازاتهم . .

وشعر إبراهيم عليه السلام أنه رغم قوة حجته وجميل عبارته وسلامة منطقه يواجه عقولاً سيطر عليها الكهنة ، فقرر العودة إلى فلسطين . .

الهدية :

ولمّا علم الملك برغبته في العودة منحه هدايا وعطايا ، كما قدّم له جارية من جواريه هي السيدة هاجر الأميرة المصرية وزوجة ملك منف في الجنوب الذي ناضل من أجل طرد الهكسوس - الذين استولوا على شمال مصر - كي تعود مصر كما كانت قبل غزوهم لها قطرًا موحدًا ومملكة واحدة ، ولكنه قُتل في جهادهم ووقعت زوجته الأميرة في أسْرهم . .

ولم يجد ملك الهكسوس الذي كان يُكِنّ لإبراهيم عليه السلام تقديرًا واحترامًا هدية أفضل منها كعادة الناس في هذه الأزمان ؛ وهكذا انتقلت هاجر من ملكية ملك الهكسوس إلى ملكية خليل الله .

إيمانها :

ولمّا عاشت هاجر مع الأسرة المؤمنة شرح الله صدرها للإيمان فآمنت بالحنيفية السمحاء، ونهلت من دين الله على يد نبيه الكريم كل مبادئ الخير ، وقيم الفضيلة ، ووجدت في دين الله ما يعوّضها عن ذلّ الأسْر ووحشة الحرمان من الأهل . .

وعندما رحل إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين قدّر الله تعالى أن تكون في صحبته أميرة مصر السابقة لتكون أما للعرب ولتكون الرباط القديم الذي يربط بينهم وبين

المصريين.

الزوجة والأم :

أدركت سارة زوجة الخليل عليه السلام أنها لا تستطيع أن تمنحه الولد لأنها عاقر ، فاقترحت عليه أن يتزوج هاجر ، واستجاب إبراهيم عليه السلام ،وصارت هاجر زوجة للخليل . .

ولمّا حملت منه أخذت تشكر ربها متضرعة أن يرزقها الله الذرية الصالحة ، فرأت في منامها مَن يقول لها : لقد سمع الله دعاءكِ يا هاجر ، وسيَهبكِ ولدًا ذكرًا فسمّيه إسماعيل ـ أي المسموع من الله ـ وذلك لأن الله قد سمع ابتهالكِ ودعاءكِ وقد استجاب لك . .

ثم ولدت السيدة هاجر إسماعيل عليه السلام ، ورفعه إبراهيم عليه السلام بين يديه واتجه إلى الله قائلاً : رَبِّي إِنِّي أُعِيذُهُ بِكَ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . .

فيوحي الله عز وجل إلى الخليل عليه السلام : إِنَّنِي أُبَارِكُهُ وَأُبَارِكُ ذُرِّيَّتَهُ يَلِدُ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَاجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمة . .

فيقول الخليل عليه السلام : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . .

وخرّ ساجدًا لله عز وجل .

الهجرة :

أحسّت سارة بالألم حين رأت أمَتها هاجر تلد وتُسعد إبراهيم عليه السلام وهي عاجزة عن ذلك ، فلا هي نَعمت بمشاعر الأمومة ، ولا هي أعطت زوجها ما يتمناه ، ورأت أن راحتها في أن تبتعد عنها هاجر لأنها تُذكّرها هي وابنها بمأساتها ، فأشفق عليها ابن عمها وزوجها ، وركب دابته ، وصحب هاجر وإسماعيل عليهما السلام تُوَجِّهُهُ عناية الله ، وراح يضرب في الفيافي والقفار متجهًا نحو الجنوب ،وهو يسير بوحي الله وإلهامه إلى أن استقر في وادٍ غير ذي زرع بين جبلين ، واستودع الله زوجه وابنه ، واتجه عائدًا إلى فلسطين ، فتسأله هاجر : إلى مَن تكلُنا ؟

فيقول عليه السلام : إِلَى الله . .

حينئذ اطمأنت الزوجة المؤمنة ، فقالت : إذًا لن يُضيّعَنا الله . .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن ترتبط هذه السيدة ووليدها بهذا المكان ، ويهمُّ الخليل عليه السلام بالرحيل ، لكنه يتجه إلى الله تعالى قائلاً ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . .

ولا شك أن الخليل عليه السلام وهو يغادر أهله كان على يقين من أن الله تعالى الذي وجَّهَه إلى بيته الحرام ليترك أهله هناك لابد وأن يَشملهم برحمته ورعايته حتى يكبر إسماعيل عليه السلام ، ويؤدي دوره الذي قدرّه الله تعالى .

هاجر وإسماعيل بعد رحيل إبراهيم :

عاشت السيدة هاجر مع طفلها معتمِدة على ربها ، تأكل وتشرب مما تركه إبراهيم عليه السلام من تمر وماء قليل ، لكن نفذ الزاد ونفذ الماء وكان لابد أن ينفذ التمر والماء ، وجاءت وجاع وليدها ، وعطشت وعطش وليدها . .

فاتجهت إلى أقرب المرتفعات باحثةً عن الماء ، وصعدت إلى الصفا ونظرتَ فلم تجد ، وشاهدت مرتفعًا آخر هو المروة فأسرعت إليه ، وتطلعت فلم تجد ، فعادت إلى الصفا ، وهكذا سبعة أشواط قطعتها سعيًا بين الصفا والمروة تُعاني الجوع والظمأ والنَّصَب . .

ثم عادت إلى وليدها وجلست ، وقد أسلَمت أمرها إلى ربها إذ قد فعلت ما تَقدر على ما فعله ، فليس أمامها إلا الاعتماد على الله وانتظار الفرج منه سبحانه . .

وقد جاء ، لقد انفجر الماء عند أقدام الطفل الذي يقاسي العطش ، وأسرعت تجمع المياه ، وهي تقول : زُمِّي . . زُمِّي . .

فأخذ الماء اسمَه ، وصار اسمه ماء زمزم ، وهو الذي ما زال يتدفق ويَروي الناس إلى اليوم وإلى ما شاء الله .

الحياة والأنيس :

وتمر القوافل ، ويشاهد بعضهم طائرًا فيعرفون أن المكان به ماء ، فيقصدون مكان الطائر فيلتقون بالسيدة هاجر ، ويتفقون على الحياة معها في المكان الذي كان مُقفِرًا فرزقه اللهُ الماءَ والحياةَ ، إنهم الجراهمة الذين سيكونون الأنيس في المكان الموحِش . .

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة خليله عليه السلام ، لقد رزقهم من الثمرات ،

ورزقهم الأنيس حيث جعل أفئدة من الناس تَهـوِي إليهم ، وصار المكان مؤنسًا بعد أن كان موحشًا ، ومُـثْمِرًا بعد أن كان مُقفـرًا ، وأقاموا الصلاة في الأرض الطيبة استجابة لدعوة الخليل عليه السلام أيضًا الذي كان يتردد عليهم ليعلمهم دين الله .

الذبيح :

وحين بلغ إسماعيل عليه السلام من العمر اثني عشر عامًا جاء الخليل عليه السلام من فلسطين يقول لإسماعيل : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] . .

فيقول إسماعيل عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] . .

وفي الطريق إلى جبل ثبير حيث صعد الخليل وولده عليهما السلام لتنفيذ أمر الله تعالى يأتي إبليس عليه السلام كي يَحُول بينه وبين ما أمر الله ، ولكن الخليل صاح فيه وقذفه بالحصي ، ولا ييأس اللعين ،ويعترض طريقَ إسماعيل عليه السلام كي يعصي أباه فصرخ فيه ورجمه هو الآخر بالحصي سبع حصوات مثل أبيه . .

حينئذ يتوجه إبليس إلى أمه السيدة هاجر ويخاطب فيها أحاسيس الأمومة وعواطفها ، لكن الشيطان يَلقَى منها ما لَقِيَه من زوجها وابنه سبع حصوات كي يكتمل ما رُجم به واحد وعشرون حصاة . .

وأقبلَ إبراهيم على ولده عليهما السلام كي يذبحه ، لكن جاء الفداء من السماء .

بناء الكعبة :

وكبر إسماعيل عليه السلام ، وجاءه أبوه وقد بلغ إسماعيل الثلاثين من عمره ، وقال له : يَا إِسْمَاعِيلُ . . إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي لَهُ بَيْتًا . .

فقال إسماعيل عليه السلام : فَأَطِعْ رَبَّكَ فِيمَا أَمَر . .

فقال إبراهيم عليه السلام : وَلَقَدْ أَمَرَكَ أَنْ تُعِينَنِي فِيه . .

فقال إسماعيل عليه السلام :أَفْعَل . .

وتَعَاوَن الخليل وإسماعيل عليهما السلام حتى اكتمل البناء ، وأذّن إبراهيم عليه السلام

بالحج فلبَّى الناسُ النداءَ ، وما زال الناس يُلبُّون النداء إلى ما شاء الله .

هاجر وإسماعيل :

لا شك أن الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام ، ولقد آمنت به هاجر منذ أن صارت في بيت إبراهيم عليه السلام ، وشاء الله أن ترتبط به أكثر ، فتكون أم إسماعيل عليه السلام وجدة محمد بن عبد الله ﷺ . .

وشاء أيضًا أن ترتبط ببيت الله الحرام حيث أقامت فنبع ماء زمزم تكريمًا لها ولوليدها، وحيث قام زوجها وابنها ببناء الكعبة المشرفة ، وحيث أذّن زوجها بالحج ، فكانت الفريضة الغالية لدى المسلمين . .

وشاء الله أن يكون سعيها بين الصفا والمروة ورجمها إبليس من شعائر الحج ، وأن يكون فداء ولدها من مناسكه . .

وشاء الله أن تكون رباطًا خالدًا يربط المصريين بالعرب والإسلام ، فهي أم إسماعيل عليه السلام أبو العرب وجد محمد بن عبد الله ﷺ ، أي أن هاجر المصرية هي أم العرب كما هي أم إسماعيل عليه السلام وجدة المصطفى ﷺ .

* * *

آسية بنت مزاحم عليها السلام

اليهود في مصر :

بعد أن نزل يعقوب عليه السلام وأسرته أرض مصر بدعوة من ابنه يوسف عليه السلام تكاثروا بهـا حتى إن المؤرخين قـدّروا الخارجين مع مـوسى عليه السـلام بأكثـر من نصف مليون، كانت هذه الأقلـية المؤمنه بدين الله تعيش مع الأغلبية من أبـناء مصر الذين توارثوا ديانات المصريين القدماء .

وكـانت ظروف هذه الأقليـة « بني إسرائيل » تـختلف من عـصـر إلى آخر حـسب اختـلاف شخصيـات الحكام ، فأحيانًا ينعـمون بالأمان والاسـتقرار وأحيـانًا يصب عليهم فرعون سخطه، فيعيشون في نصب وعذاب .

فرعون يتزوج واحدة منهم :

ولقد أُعجب فرعون مصر بواحدة من بنات بـني إسرائيل حين وُصفت له اسمها آسية بنت مزاحم ﵂ ، فحزن أبوها حزنًا شديدًا ، وقال : إن ابـنتي صغيرة . . ولكن فرعون كذّبه وأمر بهـا كي تُعدّ لتصبح زوجـته ، فاغتـمت آسية ﵂ كما اغتم أبـوها لاسيما أن فرعـون ليس على دينها ودينه ، فـتلطفوا مـعها ، وقـالوا : أنتِ على دينكِ ، وهو على دينه . .

وتم الزواج وأمهرها عشـرة آلاف أوقية من الذهب ومثلها من الفضـة ، وبنى لها قبة عظيمـة ، وجعل لها جـواري كثيـرات ، وأمر بذبح البقـر والغنم ، وانتقلت إلى بيـته ، وبذلك صارت له زوجة وذلك لرسالة تؤديها مع الأيام .

رؤيا مزعجة يراها فرعون :

وكـان بنو إسرائيل يرددون فـيـما بينهم أنـه سيـخرج من ذرية إبـراهيم عليه السـلام «يقصـدون أنفسهم » غـلام يكون هلاك فرعون مصـر على يديه عقابًا ، لأن فـرعون أراد السيدة سارة ﵂ زوج إبراهيم عليه السلام ، فعصمها الله عز وجل . .

وتحدث الناس بهذه البـشارة وسمع بها فرعون القائم الذي رأى فـي منامه كأن نارًا قد

أقبلت من ناحية بيت المقدس ، فأحرقت مصر وأهلها إلا بني إسرائيل ، فلما استيقظ جمع الكهنة والسحرة ، وسألهم عن ذلك ، فقالوا : إنه غلام يولد في بني إسرائيل يكون هلاك أهل مصر على يديه . .

فأمر فرعون بقتل الغلمان ، وترك البنات ، فخشى الناس أن يفنى بنو إسرائيل - الذين كانو يكلَّفون بالأعمال الشاقة - فيؤدون هم هذه الأعمال بعد هلاكهم ، فقالوا لفرعون : أفنيتَ الناس ، وقطعت النسل وإنهم خولك وعمالك . .

فأمر أن يقتل الغلمان عامًا ويُتركوا عامًا ، فولُد هارون عليه السلام في العام الذي يُترك فيه الغلمان ، وولُد موسى عليه السلام في العام الذي فيه يُقتلون .

الخطر يحدق بالطفل موسى عليه السلام :

وتحيّرت أمه ماذا تفعل كي تحميه من فرعون الذي يبث الجواسيس في كل مكان ليتعرف على مواليد بني إسرائيل ، ووقع في قلبها الحزن والهم ، فألهمت أن تتخذ له تابوتًا وتربطه فى حبل حيث كانت دارها بجوار النيل ، فكانت تضعه فى التابوت بعد أن ترضعه ، وترسله في النهر وتثبت طرف الحبل عندها ، فإذا أمنت عليه شدّت التابوت وأدخلت موسى عليه السلام بيتها رضي الله عنها ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

موسى عليه السلام في بيت فرعون :

وذات يوم أرسلت التابوت في النيل ، وغفلت أن تثبت طرف الحبل ، فتحرك التابوت حتى مرّ ببيت فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : ٨] .

إن التاريخ ليتوقف عند هذه اللحظات ليسجل العبرة والعظة لكل الأجيال ؛ إن فرعون قتل اثني عشر ألف طفل حذرًا من وجود موسى عليه السلام ، ولكن موسى عليه السلام يذهب بنفسه إلى بيت فرعون ويعيش فيه ويتغذى بطعامه وشرابه تحت سمعه وبصره ، ومن قبل أن يذهب موسى عليه السلام إلى هناك قدّر الله عز وجل ، فأحكم التقدير ، قدّر أن تكون فيه آسية بنت مزاحم رضي الله عنها ، حقًا إن رب السماوات هو الفعّال لما يريد .

آسية رضي الله عنها تشمله برعايتها :

لقد التقط التابوت آل فرعون ، ووقع نظر آسية على موسى عليه السلام فأحبته

واستبقته . .

وجاء فرعون فقال : ما هذا ؟! وأمر بذبحه « ولكنها استوهبته للتخذه ولدًا لأنها كانت لا تنجب » فوافق فرعون « وأعطوه اسمه ، إذ صار الوليد اللقيط موسى عليه السلام ، فإذا كانوا قد وجدوه بين الماء والشجر « فليسموه كذلك ؛ إذ أن « مو » تعني في لغة مصر الماء و « سي » تعني الشجر .

وبينما كان الطفل في بيت فرعون آمنًا كانت أمه رضي الله عنها في بيتها يكاد يطير عقلها من شدة الخوف والفزع ؛ إذ علمت بوقوع ابنها في يد فرعون ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ [القصص: ١٠] .. يقول ابن عباس رضي الله عنهما : إِنَّهَا كَادَتْ تَصِيحُ : وَابْنَاه ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص : ١٠] أي أن الله عز وجل منحها الصبر والاستقرار ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠] المصدقين بوعد الله عز وجل لها برده إليها ..

أمه عليه السلام ترضعه :

كانت السيدة « يوكايد » أم موسى عليه السلام رضي الله عنها قد كلفت ابنتها بتعقبه عليه السلام « فمشت على ساحل البحر تراقب الصندوق ، وعرفت أنه توقف عند بيت فرعون . . .

ولما وافق فرعون على الإبقاء عليه « عليه السلام » ، وأرادوا إرضاع الطفل الذي لم يقبل ثدي واحدة من المرضعات ، فأهمهم ذلك وخرجوا يبحثون للطفل عن مرضعة من خارج القصر الفرعوني « فشاهدتهم أخته ، وقالت : ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ ﴾ [القصص : ١٢] . .

ودلتهم على أمها وأم أخيها موسى عليه السلام فكلفوها أن تحضرها إليهم فأحضرتها وأعطوها ابنها فلما وجد ريح أمه أقبل على ثديها ، فسألها فرعون : مَن أنتِ منه إنه رفض أي ثدي إلا ثديك ! . .

فقالت رضي الله عنها : إِنِّي امْرَأَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ لاَ أَكَادُ أُوتَى بِصَبِيٍّ إِلاَّ قَبِلَنِي .

فقال : أرى لبنكِ غزيرًا ؛ فهل لك من ولد ؟

فقالت : وهل ترك الملك لأحد ولدًا ؟!

فظن أن ولدها قُتل مع من قُتل « ودفعه إليها . .

فرجعت إلى بيتها ومعها ابنها ، ومعها أيضًا بعض هدايا آل فرعون وجواهرهم ، وصدق ربنا عز وجل: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٣].

آسية رضي الله عنها تواصل رعاية موسى عليه السلام :

وظل موسى عليه السلام في بيتهم ترضعه أمه بالأجرة لفرعون إلى أن أتم الرضاع وأُعيد إلى بيت فرعون ، وبذلك حمته السيدة آسية رضي الله عنها من القتل ، واستمرت الحماية طيلة وجوده في بيتها . .

ومن ذلك أنه لمّا كان له من العمر ثلاث سنين أقعده فرعون في حجره ، فمد موسى يده ، ونتف من لحيته خصلة ، فغضب فرعون غضبًا شديدًا ، وقال : هذا عدوي . . وهمّ بقتله ، فقالت آسية رضي الله عنها : لَيسَ لِلصِّغَارِ عَقْلٌ أَوْ مَعْرِفَةٌ ، إِنَّه لاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ التَّمْرَةِ وَالجَمْرَةِ . .

فطلب فرعون أن يتأكد من ذلك وإلا قتله ، فأحضرت تمرة وجمرة ، فمد موسى عليه السلام يده إلى الجمرة ، ورفعها إلى فمه فاحترق لسانه وأخذ في البكاء الشديد مما سكّن غيظ فرعون .

ولمّا كان له من العمر سبع سنين جلس مع فرعون على سريره ذات يوم ، فقرصه فرعون يداعبه ، فنزل موسى عليه السلام عن السرير غاضبًا وضرب برجله قوائم السرير ، فكسر قائمتين وسقط فرعون وتهشم أنفه ، وسال دمه على وجهه ، فهمّ بقتله ، وهنا تدخلت السيدة الجليلة آسية رضي الله عنها مرة ثانية قائلة : لاَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ وَلَدُكَ بِهَذِهِ القُوَّةِ يَدْفَعُ عَنْكَ أَعْدَاءَكَ !

وهنا سكن فرعون .

ولمّا كان له من العمر اثنتا عشرة سنة ، قعد عليه السلام يومًا على المائدة وكان عليها جمل مشوي ، فقال موسى عليه السلام للجمل : قُمْ بِإِذْنِ الله . . فقام الجمل واقفًا على المائدة ، ففزع فرعون وتضايق من موسى ، ولكن السيدة آسية رضي الله عنها قالت : أَلاَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ وَلَدٌ يَأتِي بِمِثْلِ العَجَائِبِ !

وهكذا ظلت السيدة الطيبة تحرس موسى طيلة وجوده في بيت فرعون إلى أن كبر وصار له بيت يعيش فيه ، ثم خرج إلى مدين ، وفي العودة كلّفه ربه بالرسالة ، فآمنت به بنو إسرائيل وآمنت به السيدة آسية بنت مزاحم رضي الله عنها وآمن به نفر قليل من أهل مصر منهم ماشطة القصر رضي الله عنها .

بيت من الشهداء :

وبينما الماشطة تمشط شعر بنت فرعون بالمشط الذهبي سقط المشط من يدها ، فقالت :

تَعِسَ مَنْ كَفَرَ بالله . .

فسمعتها بنت فرعون ، وعرفت أنها من أتباع موسى عليه السلام أعداء أبيها ، وغضبت ، وأخبرته فجاء يستخبر الماشطة ، فقالت ﷺ : وَحَقِّ الحَقِّ أنا مُؤمنَةٌ بإلَه مُوسَى . . فأمر بعقابها ، وأُلقيت على الأرض وسُمرت يداها ورجلاها بمسامير في الأرض ثم أحضروا أولادها أمامها ، وقال فرعون : إن آمنتِ بي إلهًا أطلقتكِ وإلا ذبحت أولادكِ على صدرك . .

فتمسكت بدين الله عز وجل ، وذبح رجال فرعون أولادها على صدرها ، وهي تقول: الحَمْدُ للهِ . .

ثم جاءوا بصندوق العذاب ـ وكان مصنوعًا من حديد ـ ثم حُمّي بالنار ، ووُضعت فيه فماتت ، ﷺ .

بيت في الجنة :

ورأت آسية ﷺ الملائكة تنزل من السماء وتتباشر بقدوم الشهيدة على ربها عز وجل وبأيديهم الكرامات ، فقالت من فورها : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ [التحريم: ١١] ، ثم اتجهت إلى فرعون ، وهي تصيح فيه : يَا مَلْعُونُ . . إِلَى كَمْ أَصْبِرُ وَأنْتَ تَقْتُلُ أَوْلِيَاءَ اللهِ حَتَّى وَصَلْتَ إِلَى المَاشِطَةِ وَلَمْ تَرْعَ حَقَّهَا ! يَا مَلْعُونُ . . إِلَى كَمْ تَأكُلُ رِزْقَ اللهِ وَتَكْفُرُ بِهِ وَلاَ تَشْكُرُهُ ! يَا مَلْعُونُ . . إِلَى كَمْ تَرَى مِنَ الآيَاتِ وَلاَ تَعْتَبِرُ ! .

وهنا صاح فرعون فاجتمع عليه وزراؤه وحجّابه ، فقال : انظروا إلى فعل موسى وهارون كيف فعل بنا وبقومنا وبأهلنا وأفسدهم علينا بسحره ! لقد صعب عليّ حال آسية لكرامتها عندي ولا أدري كيف وصل إليها سحر موسى . .

فقال الوزراء : إن لم تقتلها أفسدت علينا جميع قومك . .

فأمر فرعون فوُضعت في تابوت العقاب ، ونزل جبريل عليه السلام ، يبشرها بالجنة وبأنها ستكون في الجنة زوجًا لنبي الله محمد ﷺ ، ودون أن يشعر جسدها الطاهر بألم فاضت روحها الطاهرة لتكون مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﷺ وعنهم أجمعين .

* * *

صفورة بنت شعيب
زوجة موسى عليهم السلام

رحيل موسى عليه السلام من مصر :

أدرك موسى عليه السلام أن مصر لم تعد دار إقامة بالنسبة له ؛ إذ إن الناس يتعقبونه متهمين إياه بالقتل ، حقيقة أنه لم يكن يقصد قتلاً ، ولكن ها قد حدث ما حدث وصار متهمًا يطارده القانون ، ويتعقبه الناس ولا نجاة له إلا إذا ترك مصر ، ولكن إلى أين يذهب؟

إن كل شئ بقَدَر ، ولذلك اتجه إلى ناحية الشرق إلى سيناء ثم إلى أرض مدين ،وظل يجِدّ في السير إلى أن صار يشعر أنه آمِن ، وجلس يتذكر ما حدث ،يا لها من مشاجرة كانت بين قوي من آل فرعون ورجل إسرائيلي عادي من قومه عليه السلام ،واستغاثه الذي هو من شيعته ، وجده مظلومًا ؛ إذ كان القبطي يريد أن يُجبره على تسخيره عنوة في عمل يخصه كما تعودّ أهل مصر أن يعاملوا آل إسرائيل ، وكان قاسيًا ،وموسى عليه السلام يكره القسوة ،وكان ظالمًا ، وموسى عليه السلام يكره الظلم ويحمل في قلبه خلُق النجدة ، فدفع القبطي يبعده عن الظلم ولكن يا لها من وكزة سقط الرجل على إثرها قتيلاً، ما كان يدري موسى عليه السلام ، وهوابن الثلاثين والذي بارك له الله سبحانه في عافيته أن دفعته للرجل ستقتله ، وندم موسى عليه السلام ،وقال في نفسه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص :١٦] .

انصرف موسى عليه السلام يعاني الندم يأتيه من داخله ويعاني الخوف يتوقعه من الخارج ، ومضى يوم حزين ، وفي اليوم التالي خرج خائفًا يترقب يريد أن يعرف نتيجة ما حدث بالأمس فلمح متشاجر الأمس يتشاجر اليوم من جديد . .

فلمّا رأى موسى عليه السلام استنصره مرة أخرى فاستشاط موسى عليه السلام غضبًا؛ إذ وقع في ظنه أن الرجل كثير الشجار ، وكان ينبغي أن يستحي منه بعد أن أوقعه في الحرج والخطر ، وما يدري إلا الله سبحانه ما سوف تفعل به الأيام ، فعنّفه موسى عليه السلام ولامه على كثرة شره ومخاصمته قائلاً : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] وأكثر من ذلك اندفع نحوه يؤدبه ويستخلص الرجل من يده . .

ولكن الرجل نسي ما قدّمه له موسى عليه السلام من نصرة بالأمس القريب ، وصاح

فيه : ﴿ إن تُرِيدُ إلاَّ أن تَكُونَ جبَّارًا في الأرْضِ ومَا تُرِيدُ أن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلحين ﴾[القصص : ١٩] بل أعلن أن موسى عليه السلام قاتل الأمس ، وانكشف الأمر ، وعرف الناس حقيقة القاتل ، إنه موسى عليه السلام . .

وأرسل فرعون يطلبه ، وهنا أدركه رجل طيب يقدر شهامته ونجدته ، فأسرع يحذره ﴿ مُوسَىٰ إنَّ الْمَلأَ يأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[القصص : ٢٠] ، وأحس موسى عليه السلام أنه لابد أن يخرج وأنه لابد أن يغادر مصر ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[القصص : ٢١].

وإذا كان الله سبحانه قد غفر له عليه السلام فإنه أيضًا قد هداه إلى حيث يأمن ويستريح ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[القصص : ٢٢] إذ بعد ثمن ليال قضاها وحيدًا لا معين له إلا عناية الله سبحانه وصل مدين حافيا بعد أن تساقط جلد قدميه ،جائعًا حتى أن بطنه التصقت بظهره من الجوع ، تتراءى خضرة البقل من بطنه لهزاله وضعفه عليه السلام ، لكنه قد نجا وصار في أرض مدين آمنًا وحمد الله الذي نجّاه من القوم الظالمين .

لقاؤه بابنتي شعيب عليه السلام :

وأفاق موسى عليه السلام من ذكرياته على مشهد يراه ، إنه حشد من الناس قد تزاحموا على مورد الماء ، وكل مَن لديه القدرة يأخذ الماء أولاً ، أمّا الضّعاف فيتأخرون ، وشاهد فتاتين تبعدان بأغنامهماحتى لا تختلط بأغنام الناس في ضعف وحياء حتى إذا ما انصرف الجميع تقدمتا لتسقيا الأغنام . .

وكعادة موسى عليه السلام ثارت في نفسه مشاعر النجدة وحب الضعفاء ومساعدتهم، فتقدّم وسألهما : مَا خَطْبُكُمَا ؟

قالتا : لا نسقي حتى ينصرف الرعاء خوفًا من مزاحمة الرجال ، وما دفعنا إلى المجئ والمزاحمة إلا تقدّم السن بأبينا ، فنحن نقوم بالعمل . .

فقام عليه السلام إلى البئر ، وكان الناس يغطونه بعد أن يستقوا بصخرة كبيرة قال عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لم يكن يرفعها إلا عشرة رجال . .

قال موسى عليه السلام ورفعها وحده ثم استقى لهما ، وسقى غنمهما وردّ الحجر إلى

البئر ، وعاد إلى مجلسه في الظل ، وقال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

شعيب عليه السلام يستدعي موسى عليه السلام :

وعادت الفتاتان إلى أبيهما بعد أن سقى لهما موسى عليه السلام مبكرتين على غير العادة ، فسألهما عليه السلام فأخبراه بما كان من أمرهما وأمر موسى عليه السلام ، فطلب الرجل « شعيب عليه السلام » من إحداهما « صفورة رضي الله عنها » أن تذهب إليه ، وتدعوه ليكافئه على ما قدّم لهما . .

أجل . . لقد كان الرجل نبي الله سبحانه شعيب عليه السلام ، وما كان ليفوته أن يكون شاكرًا مع مَن أحسن . .

ومشت صفورة رضي الله عنها ساعية إليه ، فقالت في استحياء ، وهي تستر وجهها بثوبها ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص : ٢٥] .

ولبّى موسى عليه السلام الدعوة ، وما أكرمها من دعوة جاءت في موعدها ؛ إنه يقاسي الغربة ، والجوع ، والخوف ، والنصَب ، وتوجه إليه ، فكان اللقاء في منزل النبي الكريم عليه السلام ، فأضافه وأكرم مثواه ، واستراح موسى عليه السلام إليه ، فأخرج له مكنون سره علّه يخفف عنه همّه ،واستراح موسى عليه السلام إليه ، فأخرج له مكنون سره علّه يخفف عنه همّه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص : ٢٥] . .

وأحس موسى عليه السلام بالأمان بعد الخوف ، ونعِم بالشبع بعد الجوع ، وشعر بالراحة بعد التعب ، حقًا إنه فضل الله سبحانه تمثّل في هذا البيت الكريم ، ولكم شعر موسى أن الله سبحانه يشمله بفضله بعد أن شمله بعفوه ، ووجد رعاية الله سبحانه أكثر تتمثل في دعوة كريمة من الأب أن يزوجه ابنته . .

لقد تلاحقت الأحداث في بيت شعيب عليه السلام ، تقول ابنته رضي الله عنها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

فيسألها أبوها : وَكَيْفَ عَرَفْتِ قُوَّتَه ؟

فتقول : شَاهَدْتُهُ يَرْفَعُ غِطَاءَ البِئْرِ وَحْدَهُ ، وَهُوَ البِئْرُ الذِي لاَ يَرْفَعُهُ إِلاَّ عَشْرَةٌ مِنَ الرِّجَال .

ويسألها : كَيْفَ عَرَفْتِ أَمَانَتَه ؟

فتقـول : حِينَ ذَهَبْتُ إِلَيْهِ أَطْرَقَ بِرأسه حَيَاءً وَخَـفَضَ مِنْ بَصَرِهِ فَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ ، وَفِي الطَّرِيقِ سِرْتُ أَمَامَهُ لأَدُلَّـهُ ، فَهَبَّتْ رِيحٌ أَخَذَتْ تَعبَثُ بِثَوْبِي فَأَشَـاحَ بِبَصَرِهِ وَطَلَبَ مِنِّي أَنْ أَتَأَخَّرَ وَأَسِيرَ خَلْفَهُ وَأَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ يَمِينًا وَيَسَارًا .

لقد أدرك شعيب عليـه السلام أن صفورة رضي الله عنها وجدت في موسى عليـه السلام المثال الكامل ، وأنها احتـرمت فيه قوته وطهره وأكبرت فـيه شهامته ونجدته عـليه السلام ،وإنها لفتاة ، وربما يكون الإعـجاب ، ولو تمنت الطاهرات العفيفات بنات الأنبـياء زوجًا ، فلن يتمنين أكثـر مما بدا من خلق موسى عليه السلام ، وطـهره وعفته ونجـدته ، وأدرك شعيب عليه السلام ما يجول بخاطر ابنته رضي الله عنها

زواج موسى عليه السلام صفورة رضي الله عنها:

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[القصص : ٢٧] . .

يقول القرطبي : في الآية عرض الولي ابنتـه على الرجل ، وهذه سُنَّة قائمة ؛ عرض شـعيب ابـنته على مـوسى ، وعـرض عـمر بن الخـطاب ابنته عـلى أبي بكر ، وعلي ، وعثمان، وعـرضت الموهبة نفسها على النبي فمن الحسن عـرض الرجل وليته على الرجل الصالح . . . أجل. . سُنة سنّها نبي الله شعيب عليه السلام ، وإنها لَسُنَّة حسنة استحسنها علماء المسلمين .

لقد لـفت موسى عليـه السلام نظر صـفورة رضي الله عنها بطهره ، ولفت نـظر أبيها بأمـانته وقوتـه، فأحـبه زوجًا لابـنته ومُـعينًا له في حـياته ، ووجـد موسى عليـه السلام البـيت الطيب،والرجل الصالح ، فوجد الأمان ووجد المُعين ، وصارت صفورة رضي الله عنها زوجة لموسى عليه السلام .

وعاش حياة وادعة مع زوجـة طيبة بين أسرة كريمة ، ولقد قضى كمـا يقول ابن عباس أتمّ الأجلين وأكملهما ، وأوفاهما ، وهو عشر سنين ، وكان موسى عليه السلام خيرًا وبركة على آل شـعـيب عليه السلام إذ كـان يرعـى غنمـه ، فـتكاثرت الغنم ، وصـارت أعـدادها عظيمة . . وكان بيت شعيب عليه السلام بركة على موسى عليه السلام ؛ إذ وجد فيه الأمن، والسكن ، والصحبـة الطيبة ، والزوجة الصـالحة والرزق أيضًا ؛ إذ وهبه أغنامًا كـثيرة عند عودته ، وأعطاه العصا المباركة يهش بها على غنمه ، وتكون معجزته الخالدة مع الأيام .

العودة إلى مصر والنبوة في الطريق :

وسار موسى بأهله إلى مصر التي اشتاق إليها ؛ حيث قدّر أن الناس نسوا مقتل القبطي ، وعبر سيناء ، وفي ليلة اشتد بردها وظلامها ضل الطريق ، وحاول أن يقدح زناده ليحصل على نار ، ففشل وحار موسى عليه السلام في أمره . .

وفجأة أبصر من الجهة التي تلي الطور نارًا تتوهج ، ففرح وقال لأهله : امكُثُوا حتَّى آتِيَ النَّارَ ؛ فَرُبَّمَا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى الطَّرِيق ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] أي تستدفئون ، ويتمكن بعد ذلك من أن يجمع أغنامه التي تفرقت بسبب الرياح . .

وذهب إلى النار ، ولكن كانت المفاجأة الكبرى ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] . .

وهناك . . حيث ذهب يبحث عن النار وجد النور ، وحيث ذهب يبحث عمّن يرشده وجد الله عز وجل ، ووجد الهداية ، وصار رسول رب العالمين . .

وعاد إلى صفورة ﵂ ابنة نبي الله عليه السلام وزوجة رسول الله عليه السلام ليكملا المسيرة نحو مصر لدعوة الناس لرب العالمين عز وجل .

* * *

بلقيس زوجة نبي الله سليمان عليه السلام
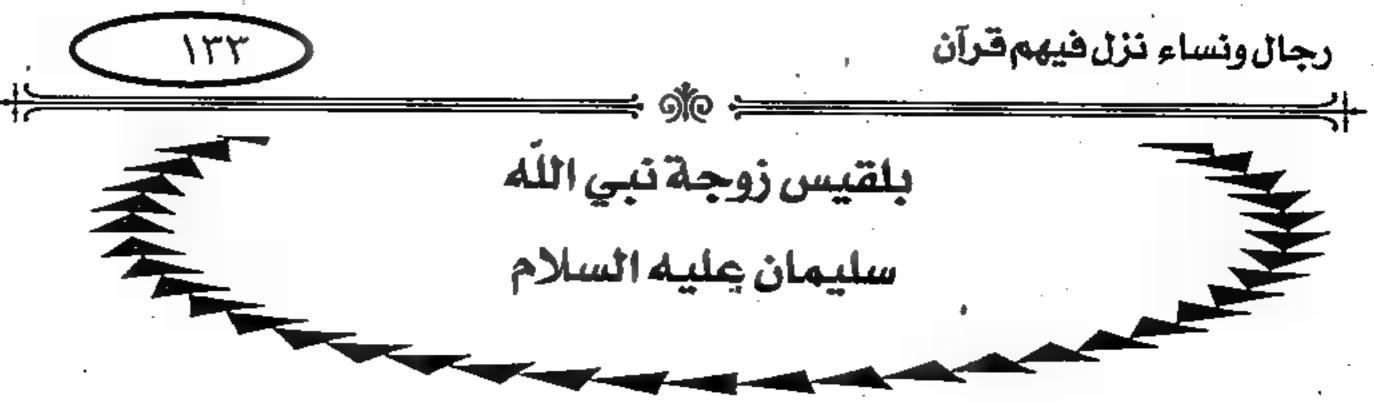
ترث ملك أبيها :

شعر الملك « الهَدهاد بن شُراحبيل » أن أجَلَه قد دنا ، فجمع وجوه « حِمْيَر » وقال لهم : يا قوم إنني قد جمعت الناس ، واختبرت أهل الرأي والعقل ، فلم أرَ مثل بلقيس، وإنني قد وليتها أمركم لتقيم لكم الملك إلى أن يبلغ ابن أخي « ياسر ينعم ابن عمرو . . » . .

فرضَوا بذلك ، وملكت بلقيس ولها من العمر ثلاثون عامًا بعد أن تُوفِّي والدها الهدهاد في وقت مقارب للوقت الذي توفى فيه داود عليه السلام . .

وهكذا شاءت إرادة الله عز وجل أن يلي سليمان عليه السلام الحكم خليفة لأبيه داود عليه السلام في الوقت الذي وليت فيه بلقيس العرش خليفة لأبيها الهدهاد . .

تقوم بأعمال عظيمة :

أما بلقيس فقد كانت ذات عقل راجح وتفكير سديد ، فجمعت الجيوش العظيمة ، واتجهت إلى مكة فاعتمرت كشأن سائر العرب الذين يفدون الكعبة رغم عبوديتهم للشمس والأوثان ، ثم توجهت إلى العراق ، ونهاوند ، وأذربيجان ، ففتحت هذه البلاد ثم عادت إلى اليمن لتُصلح سد مأرب الذي تصدع ، وتشيِّد قصرها المشهور الذي كان له سبعة أبواب وثلاثمائة وستون فتحة حيث تدخل الشمس في كل يوم من فتحة ولا تدخل من نفس الفتحة إلا في نفس اليوم من العام التالي ، وراحت تُصلح من شأن الزراعة وتُسهم في تحقيق الخير لشعبها .

تعاصر نبي الله سليمان عليه السلام :

أما سليمان فقد شرع في استكمال المعبد الذي بدأه داود عليه السلام ، والذي حمل اسمه بعد ذلك « معبد سليمان » ، وجعل يوم تمامه عيدًا لم يكن في الأرض عيد أبهى ولا أعظم منه . .

وأراد سليمان عليه السلام زيارة المعبد وتهيأ للرحيل والخلائق من حوله ، لكنه تفقد الهدهد فلم يجده ، وكان في حاجة إليه ؛ لأنه كان يهديهم إلى الماء في الطريق ؛ إذ كان

ينظر لهم هل بهذه البقاع ماء ، وكان فيه قوة أودعها الله عز وجل فيه تمكنه من رؤية الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا واستخرجوه ، قال سليمان عليه السلام ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

[النمل : ٢٠ ، ٢١] . .

الهدهد يحمل خبر بلقيس إلى سليمان عليه السلام :

وهنا تقدّم العُقاب ملك الطيور للبحث عنه ، فرآه قادمًا من ناحية اليمن ، فأخبره بما كان من أمر نبي الله سليمان عليه السلام ، فقال : لقد أتيته بسلطان مبين . .

وطار حتى دخل على نبي الله ، فسأله عليه السلام : ما الذي أبطأك ؟

فقال الهدهد : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

[النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

فيقول سليمان عليه السلام ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٧ ، ٢٨] . .

ذلك أن سليمان عليه السلام نبي الله وداعيه إلى عبادته عز وجل ، أما وقد وجد قومًا ضالّين ، فلابد وأن يرشدهم ، فكتب كتابه وحمله الهدهد ، وألقاه إلى بلقيس ﵂ .

وحملها ذكاؤها إلى أن تستعين بعقلاء قومها ، فقرأت عليهم ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٩ ـ ٣١] . .

بلقيس ﵂ تستشير قومها :

ثم توجهت إليهم ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾

[النمل : ٣٢]

فماذا كان ردهم ؟ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

[النمل : ٣٣]

ولقد اتضح حسن تدبيرها ، ورجاحة عقلها في ردها عليهم ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾[النمل : ٣٤] وعالجت الأمر بقولها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[النمل : ٣٥] . .

هدية بلقيس ﷺ إلى سليمان عليه السلام :

ذلك أنها رأت إذا قبل الهدية ، فهو ملك يريد الدنيا ، وعليهم أن يقاتلوه ، وإن لم يقبلها ، فهو نبي صادق وعليهم أن يتبعوه . .

فتخيرت وفدًا برئاسة « المنذر بن عمرو » يقود ثنتي عشرة من نجائب الإبل محملة بأشياء كثيرة منها خمسمائة لَبِنَة من الذهب ، ومثلها من الفضة ، وزن كل لبنة مائة رطل ، وخمسة أسياف وتاجان من الذهب فيهما من الجواهر الثمينة واليواقيت والزبرجد ، وأرسلت أيضًا حقة فيها درة مثمنة ، وخرزة من الجزع ، وهي معوجة الثقب ، وأرسلت خمسمائة جارية ، وخمسمائة غلام أمرد ، وألبست الغلمان لبس الجواري ، وألبست الجواري لبس الغلمان ، وأمرت الغلمان أن يتكلموا بكلام لين والجواري أن يتكلمن بكلام غليظ .

بلقيس ﷺ تختبر سليمان عليه السلام:

وقد أرسلت مع المنذر كتابًا تقول فيه : إِنْ كُنْت نَبِيًّا فَمَيِّزْ بَيْنَ الْجَوَارِي وَالْغِلْمَانِ، وَأَخْبِرْنِي بِمَا فِي الْحُقَّةِ قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَهَا وَاثْقُبِ الْخَرَزَةَ ثُقْبًا مِنْ غَيْرِ عِلَاجِ إِنْسٍ وَلَا جَانٍّ وَانْظِمِ الْخَرَزَةَ كَذَلِكَ . .

ثم قالت للرسول : انْظُرْ إِلَيْهِ فَإِنْ كَانَ نَظَرُهُ إِلَيْكَ بِغَيْرِ غَضَبٍ فَهُوَ نَبِيٌّ وَإِلَّا فَهُوَ مَلِكٌ يُهَوِّلُنَا أَمْرُهُ . .

فلما توجه الوفد سبقه الهدهد وأخبر سليمان عليه السلام بما قالته بلقيس ﷺ ، فلمّا دخل الرسول قال سليمان عليه السلام : أَيْنَ الْحُقَّةُ الَّتِي مَعَكَ ؟

فأتاه بها ، فقال سليمان عليه السلام قبل أن يفتحها : إِنَّ فِيهَا دُرَّةً مُثَمَّنَةً مِنْ غَيْرِ ثُقْبٍ وَفِيهَا خَرَزَةٌ مِنْ جَزْعٍ وَهِيَ مُعْوَجَّةُ الثُّقْبِ . .

فقال المنذر : صدقت يا نبي الله !

ثم إن سليمان عليه السلام أمر الأرضة « دويبة صغيرة » ، فأخذت شعرة في فمها ، ودخلت في تلك الخرزة ، وخرجت من الجانب الآخر ، وأمر دودة بيضاء أن تثقب تلك

الدرة ، ثم نظمهما وأعطاهما للرسول ، وميّز بين الجواري والغلمان ، ثم رد جميع الهدية إلى المنذر الذي رجع إلى اليمن ، وأخبر بلقيس ﵂ بما رآه وسمعه . .

فقالت بلقيس ﵂ : هُوَ نَبِيٌّ ، وَلَيْسَ لَنَا بِحَرْبِهِ طاقة .

بلقيس ﵂ تذهب إلى سليمان عليه السلام في فلسطين :

ثم أرسلت إليه عليه السلام تقول : إِنِّي قَادِمَةٌ إِلَيْكَ أَنَا وَقَوْمِي لأَنْظُرَ مَاذَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ دِينِكَ . .

وأغلقت الأبواب على عرشها ، وجعلت عليه الحراس ، وتوجهت إلى سليمان في اثنى عشر ألفًا من قومها . .

ولمّا اقتربت من مدينة سليمان عليه السلام رأى أن يُظهر لها فضل الله سبحانه عليه «عليه السلام » وما آتاه من معجزات ، فقال عليه السلام : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] . .

فقال عفريت من الجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩] . .

يقصد من أول النهار إلى نصفه ـ حيث كان سليمان عليه السلام يجلس ليقضي بين الناس ـ وهو قادر وأمين على ما به من جواهر . .

لكن جبريل عليه السلام الذي عنده علم من الكتاب ، قال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] . .

فحمد سليمان عليه السلام ربه عز وجل لما ألقى بصره فرآه .

معجزات في فلسطين تدفعها إلى الإيمان :

ولمّا جاءت بلقيس ﵂ سألها عليه السلام : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : ٤٢] . .

فأدرك سليمان عليه السلام أنها تحسن التقدير والتعبير ، فانتقل إلى ما أعدّه لتراه لتشاهد مرة أخرى ما أعطاه الله عز وجل من معجزات ، انتقل إلى الصرح أو القصر الزجاجي الذي أجروا الماء تحت أرضه الشفافة ، ويجري من تحته السمك ، فيظن السائر على البلور أنه سائر على ماء . .

لذلك تعجبت لأن كرسي سليمان عليه السلام يبدو على الماء ، وكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها مما ظننته ماء ، لكنها أدركت أنها واهمة ، وليس في الأمر ماء لكنها القدرة على البناء التي تصل إلى حد الإعجاز ، إذ أفهمها سليمان عليه السلام ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ ﴾ [النمل : ٤٤] ، وهنا آمنت أنه نبي ،وأنها ظلمت نفسها لأنها انصرفت عن عبادة الله سبحانه إلى عبادة الشمس ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤].

وقد لمح سليمان عليه السلام في ساقيها شعرًا حين كشفت عنهما ، فطلب من الجن أن يدلوه على وسيلة لإزالة الشعر ، فصنع أحدهم النورة ، فأزالت شعر بدنها ، ووضعوا له الحمّام ، لكان أول من دخل الحمّام عليه السلام ، فلمّا وجد مسّه قال : أوه مِنْ عَذَابِ أوهْ . . . قَبْلَ ألاَّ يَنْفَعُ أوهْ .

سليمان عليه السلام يتزوج بلقيس ﵂:

وتزوج سليمان عليه السلام بلقيس ﵂ وردّها إلى اليمن وأقرها على مملكتها ، وكان يزورها في كل شهر مرة على البساط ، فيقيم ثلاثة أيام ثم يعود ، كما أمر الجان فبنوا لها ثلاثة قصور باليمن « غمدان وسالحون وبَيْنون » . .

ودائمًا كانت بلقيس ﵂ معتذرة عن انصرافها عن الله عز وجل قبل أن تلتقي بنبي الله سليمان عليه السلام وضلالها مدة من الزمن ظلمت فيها نفسها ، وتحمد الله سبحانه أن أسلمت لله رب العالمين .

* * *

مريم بنت عمران عليها السلام

بيت كريم :

من البيوت التي خصّها سبحانه بفضله بيت عمران ؛ إذ ﷺ ، فاصطفاهم كما اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم عليهم السلام ، يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣].

ولم يكن عمران ﷺ نبيًّا ولكنه ابن أنبياء ؛ إذ هو من سلالة داود عليه السلام « وكان صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه أي : قبل بعثة المسيح عليه السلام » واقترن بسيدة صالحة هي « حَنَّة بنت قاعود » ﷺ التي كانت من العابدات ، لذلك ليس غريبًا أن يقصد بيتهم الطيب الذي عُرف بالتقوى والصلاح نبي الله زكريا عليه السلام ليتزوج ابنته «أشياع » ﷺ.

وتمضي الأيام وهذه الأسرة الصالحة تقضي الوقت في طاعة الله سبحانه ، وتحظى بتكريم الناس بعد أن حظيت بتكريم الله رب الناس سبحانه وتعالى .

أمها تشتهي الولد :

وذات يوم رأت السيدة حنّة ﷺ طائرًا يطعم فرخه ، فاشتهت الولد بعد أن توقفت عن الإنجاب دهرًا ، فتوجهت إلى الله سبحانه تطلب أن يرزقها ذرية صالحة من جديد ، وتتعهد ناذرة أن تقدم ما في بطنها لله ليكون محررًا أي : يصبح حرًا خالصًا لوجه الله سبحانه لا يشوبه شيء من أمر الدنيا بأن يكون عاكفًا في بيت المقدس ليظل عابدًا لله تعالى طيلة عمره ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] . .

وتلح السيدة حنّة ﷺ في الرجاء ، ولم تكن تعلم أن الله سبحانه في سابق علمه قدّر لها أن تحمل أمانة سيكون لها مع الأيام دور ورسالة . .

وأجاب الله سبحانه دعوتها ، وحملت ثم وضعت ، واختارت لها اسمًا كريمًا هو «مريم » بمعنى العابدة خادمة الرب ، وطلبت من الله سبحانه أن يحميها من الشيطان الرجيم . .

يقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٣٦].

الله سبحانه يحميها :

لقد وضعت مولودها أنثى ، ويبدو أنها تعتذر لأنها أنثى ؛ لأنه ـ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما ـ لم يكن يُقبَل في النذور إلا الذكور . .

واستجاب الله سبحانه لها ، فحماها أولاً : من الشيطان الرجيم ، يقول الرسول ﷺ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا » . .

يقول الله عز وجل : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران:٣٧] ذلك أنها حين صار سنُّها يناسب الإقامة في المسجد حملتها أمها ، وقدمتها إلى عبّاده ، فتعهدها بالرعاية نبي الله زكريا عليه السلام .

زكريا عليه السلام يكفلها رضي الله عنها:

ولقد شاء الله سبحانه أن يكفلها نبيه زكريا عليه السلام بعد أن اختصم العبّاد كل يريد أن يكفلها ، فاحتكموا إلى القُرعة ـ وكانت الأقلام وسيلتهم في الاقتراع إذ كان كل واحد منهم يلقي قلمه ، ثم يأتون بغلام دون سن البلوغ ويلتقط إحداها ـ فالتقط قلم زكريا عليه السلام . .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] . .

معجزات :

واختار لها زكريا عليه السلام مكانًا طيبًا شريفًا في المسجد لتقيم فيه ، فكانت تقضي وقتها في العبادة ليلاً ونهارًا ، فإذا جاء دورها في خدمة المسجد أدته ثم انصرفت للعبادة حتى صارت محل احترام وتقدير الجميع ، ثم أكرمها الله سبحانه بالمعجزات ؛ إذ أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل عليها رأى عجبًا ، إذ كان يجد فاكهة وطعامًا ، وكان يجد فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وإذا سألها: ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . .

ولذلك تمنى زكريا عليه السلام أن تكون له ذرية صالحة تشبه مريم عليها السلام ،

وهوالذي تقدمت سنه وانقضى من عمره مائة وعشرون عامًا ، ولم ينجب ، وهناك دعا زكريا عليه السلام ربه سبحانه قائلاً : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨].

الملائكة عليهم السلام تبشرها بعيسى عليه السلام :

ثم تأتيها الملائكة تبشرها بعيسى عليه السلام كلمة الله سبحانه وروحه ، ونبيه ، ووجيهًا في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ، رغم أنها لم تتزوج ، وتتعجب السيدة مريم عليها السلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : ٤٧] . .

ولكن الله سبحانه يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ، وقد كان؛ إذ خرجت من المسجد ذات يوم تقضي بعض شئونها ، وانفردت شرقي المسجد الأقصى ، فجاءها الأمين جبريل عليه السلام متمثلاً لها بشرًا سويًا ، فاستعاذت بالله منه ، لكنه طمأنها بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾[مريم : ١٩] ، ونفخ في جيبها ، فحملت . .

واعتزلت الناس إلى أن ألجأها المخاض إلى جذع نخلة تعتمد عليه عند الولادة ، وهي تقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] ، إذ هي تدرك أنها محنة أن تواجه قومها بوليد دون أب .

رعاية الله سبحانه وتعالى :

ولكن رحمة الله سبحانه تمثلت في مَلَك يناديها من تحتها يبشرها برعاية الله سبحانه لها ، تتمثل في جدول صغير يجرى أمامها لتشرب لم يكن موجودًا من قبل ،وطعام شهي هو الرطب من جذع النخلة اليابس الذي لا يثمر .

تتجمع الخوارق والمعجزات لتؤكد لها أنها مشيئة الله سبحانه ؛ فهي تلد دون زوج ، وتنفجر المياه وتتساقط الثمار ليعبر هذا كله عن قدرة الله عز وجل: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥] .

وتتجلى حكمة الله سبحانه ورحمته في أنه رزقها الرطب دون غيره من الثمار لأنها في حاجة إليه ، وهي تلد وحيدة ليس معها من مُعين سوى رحمة ربها سبحانه وتعالى ؛ إذ بالرطب هرمون « البيوسين » الذي يقوي العضلات الرحمية ، وينظم الطلق ، فيجعله

متوازنًا ساعة الولادة ، إذ يقوم بالعمل وعكسه طبقًا لحاجة الجسم بأن يُزيد الطلق إذا كان باردًا ويُقلله إذا كان حارًا ، ورزقها الله سبحانه الرطب في وقت لا توجد فيه رطب ؛ إذ وُلد المسيح عليه السلام في يناير ، ولكنها قدرة الله سبحانه ورعايته .

مواجهة الناس :

حملته وخرجت ، ولكن ماذا تقول للناس الذين تصدمهم المفاجأة ، ويعجبون مما فعلت العابدة التي تشبه هارون عليه السلام في طهره ، وهي بنت الأطهار الكرام ﷺ؟! ذهول ما بعده ذهول يسيطر على الناس ، ويتهمونها أنها أتت أمرًا فريدًا ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

[مريم : ٢٧ ، ٢٨]

أي : كلام لن يقنع الناس ، ولابد من معجزة ، وتتدخل الإرادة الإلهية ، فلتسكت مريم عليها السلام ، وليتكلم عيسى عليه السلام بقدرة الله عز وجل ، فليس من حل سوى ذلك ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[مريم : ٢٦] حيث كان الصوم يتضمن الكف عن الكلام في شريعة اليهود حينئذ ، وتشير عليها السلام إليه ليتكلم فيظنونها - وهي المتهمة - تسخر منهم ومن عقولهم ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[مريم : ٢٩] . .

لكنها لا تردّ ،وشاء الله سبحانه أن يردّ الوليدُ « عليه السلام » عليهم ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

[مريم: ٣٠ - ٣٣]

إنها رسالته عليه السلام وإنها حياته نطق بها ليبرر سبب مجيئه إلى الحياة ، فضلاً عن أن يكون آية من آيات الله سبحانه ، ويفسر لنا أنواع خلقه سبحانه ؛ إذ خلق الله سبحانه آدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء عليها السلام من ذكر دون أنثى ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى دون ذكر ،وخلق الخلق دون ذلك من ذكر وأنثى .

مريم عليها السلام في القرآن :

ولذلك لا نعجب حين نعلم أن الله عز وجل لم يذكر في كتابه الكريم امرأة باسمها

إلا السيدة مريم عليها السلام ؛ ذلك أنه يعلم في سابق علمه سبحانه أنه سيأتي من يقول إنها زوجة الله سبحانه وتعالى والعظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ، وإنما ذكرها لينتسب إليها عيسى عليها السلام الذي لا ليس له أب ، ولهذا يقول عز وجل: ﴿ عيسى ابن مريم﴾ .

وهكذا كانت مريم عليها السلام استجابة لدعوة كريمة ، وأدت دورها في حمل كلمة الله سبحانه ثم أسهمت في تأكيد قدرة الله على الخلق بأنواعه ؛ حيث ولَدت دون زوج لتقدم للإنسانية عيسى ابن مريم المسيح المبارك عليهما السلام .

* * *
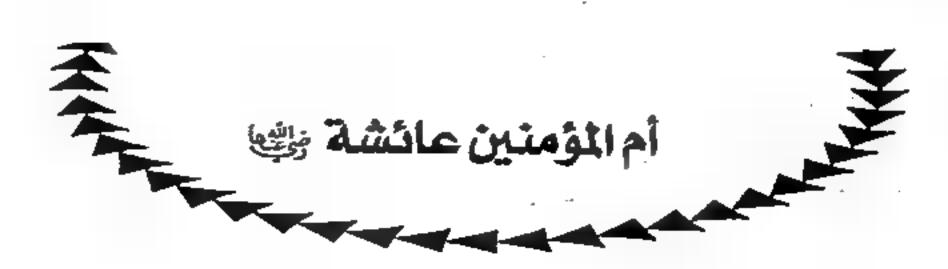
أكثر السيدات أهمية في الإسلام :

يُجمع مؤرخو الإسلام على أن أكثر السيدات أهمية في تاريخ النبي ﷺ هن السيدة خديجة بنت خويلد والسيدة عائشة بنت أبي بكر زوجتاه والسيدة فاطمة ابنته ﷺ و رضي الله عنهن .

فالسيدة خديجة رضي الله عنها رفيقة الكفاح ؛ إذ خدمت رسول الله ﷺ أكثر من خمسة وعشرين عامًا كانت له فيها وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها.

والسيدة فاطمة ابنتها وابنة رسول الله ﷺ ، وهي التي عاشت لرسول الله ﷺ ، وبقية أخوتها مُتْنَ في حياة أبيهن ﷺ .

مكانتها رضي الله عنها :

أمّا عائشة رضي الله عنها فكانت أحب أزواجه إليه ﷺ ، وهي أول امرأة عقد عليها بعد خديجة رضي الله عنها ، ولم يتزوج بِكرًا غيرها ، ويقول عنها ﷺ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ » ، وهي زوجة رسول الله ﷺ وابنة المسلم الأول والخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

عِلمها رضي الله عنها:

وقد عمّرت بعد وفاة زوجها ﷺ خمسين عامًا تبلّغ القرآن والسنة ، وتعلّم المسلمين أمور دينهم وتُفتيهم ، ويقول عنها رسول الله ﷺ : « خُذُوا نِصفَ دِينِكُمْ عَنْ هَذِهِ الحُمَيْراء » . .

ويقول عنها عطاء بن رباح رضي الله عنه: كَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها أفقَهَ النِّسَاءِ وَأَعْلَمَ النِّسَاءِ وَأحْسَنَ النِّسَاء . .

ويقول عنها الزهري رضي الله عنه: لو جُمع علم أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل . .

وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها ألف حديث ومائتين وعشرة أحاديث ..

كرمها رضي الله عنها :

أمّا كرمها فقد كان مضرب الأمثال ؛ فيُروى أنها تصدقت برغيف كانت لا تملك غيره وهي صائمة . وكانت إذا تصدقت بدرهم طيّبته ، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك فقالت: أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ دِرْهَمِي مُطَيَّبًا لأَنَّهُ يَقَعُ فِي يَدِ اللهِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ . .

فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ وَفَّقَكِ اللهُ يَا عَائِشَةَ » .

بين المولد والوفاة :

ولقد وُلدت السيدة عائشة بعد البعثة بأربع سنين ، وعقد عليها رسول الله ﷺ في شوال بالمدينة . وهي بنت ست ،ودخل بها ، وهي بنت تسع وأقام عندها تسع سنين . وكانت تكنّى بأم عبد الله لأنها قالت : يَا رَسُولَ كَنَّيْتَ نِسَاءَكَ وَلَمْ تُكَنِّنِي ، قال ﷺ : «تَكَنَّي بِابْنِ أُخْتِكِ عَبْدِ اللهِ » « عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء رضي الله عنها » . .

وعاشت ستًا وستين سنة ،وماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودفنت بالبقيع بعد أن صلى عليها الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه.

تختار الله ورسوله :

وحين خيّر الرسول ﷺ نساءه رضوان الله عليهن حين نزل قول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أول من خيّرها رسول الله ﷺ من النساء ، فاختارت الله ورسوله ومن بعدها اختارت بقية الزوجات اللهَ ورسولَه . .

فأنزل الله مكافأة لهن قوله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] فكان هذا أعظم تكريم لأمهات المؤمنين .

دعاء ساعة المرض :

ولقد علّمت السيدة عائشة رضي الله عنها المسلمين ـ من بين ما علّمتهم ـ كيف يدعون اللهسبحانه في حالة المرض ؛ فقد دخل عليها رسول الله ﷺ وهى تُوعك . فقال : « مَا لِي أَرَاكِ هكَذَا ؟» . .

قالت : مِنَ الحُمَّى . . وسَبَّتْها . .

فقال ﷺ : « لاَ تَسُبِّيهَا ، فإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، وإِنْ شِئْتِ عَلَّمْتُكِ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتِهِنَّ أَذْهَبَهَا

اللهُ عَنْكِ » .

قالت : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . .

قال ﷺ : « فَقُولِي : اللَّهُمَّ فَارْحَمْ جِلْدِيَ الرَّقِيقَ وَعَظْمِيَ الدَّقِيقَ مِنَ شِدَّةِ الحَرِيقِ ، يَا أُمَّ ملدم إِنْ كُنْتِ آمَنْتِ بِاللهِ العَظِيمِ رَبًّا فَلاَ تُصَدِّعِي الرَّأْسَ وَلاَ تُغَيِّرِي الفَمَ وَلاَ تَأْكُلِي اللَّحْمَ وَلاَ تَشْرَبِي الدَّمَ وَتَحَوَّلِي عَنِّي إِلَى مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ » .

قالت : فَذَهَبَتْ عَنِّي .

تَعرف فضل الله عليها :

وكانت رحمها الله تعرف فضل الله عليها ، فتقول عن نفسها : أُعْطِيتُ خِصَالاً لَمْ تُعْطَهُنَّ امْرَأَةٌ غَيْرِي : جُوِّرَتْ لِرَسُولِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أُحَوَّرَ فِي بَطْنِ أُمِّي ، وَكُنْتُ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي مِنَ السَّمَاءِ .

حادث الإفك :

وربما كان أهم حادث في حياتها مع رسول الله ﷺ ما يسمى بحادث الإفك ، إذ تحرك جيش المسلمين أثناء عودتهم من غزوة بني المصطلق بينما كانت ﵂ تقضي حاجتها فاعتقدوا أنها في الهودج ، وحضرت بعد تحركهم ، وجاء صفوان بن المعطل ﵁ الذي كان قد تخلف هو الآخر عن الجيش ، ففوجئ بها فصحبها إلى حيث لحق الجيش . .

وكان المنافقون كعادتهم يبحثون عن مطعن في الإسلام ورسوله ﷺ ، فقال كبيرهم عبد الله بن أبيّ : والله ما نجت منه ولا نجا منها . .

وردد المنافقون مقالة كبيرهم حتى آذوا رسول الله ﷺ وآذوا زوجه ﵂ وآذوا المسلمين، إلى أن نزلت البراءة من السماء في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[النور : ١١ ـ ١٧]

ويتسائل الإمام القشيري رضي الله عنه قائلاً : قال النبي ﷺ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » والنبي أولى بالفراسة في حق عائشة ، فلم لَم يستطع التعرف على الحقيقة ؟!..

ويجيب : إن الله سدّ على أوليائه عيون الفراسة كمالاً للبلاء .

وقال غيره من العلماء : ستر الله عنه العلم بحالها ، وهو أكرم الخلق يُبْطِل قول المنجم والكاهن .

وذكر بعض العلماء أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام : « هَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ » ..

قال : نَعَمْ .

قال : « فَلَمْ تُخْبِرْنِي » ..

قال : أَرَدْتُ ذَلِكَ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : يَا جِبْرِيلُ .. لاَ تَفْعَلْ لأَنَّ الشِّدَّةَ مِني وَالفَرَجَ مِني .

وما أجمل أن نتذكره مرة أخرى قولها : أَعْطِيتُ خِصَالاً لَمْ تُعْطَهُنَّ امْرَأَةٌ غَيْرِي : حُوِّرْتُ لِرَسُولِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أُحَوَّرَ فِي بَطْنِ أُمِّي ، وكُنْتُ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وأَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي مِنَ السَّمَاءِ .

رحم الله أم المؤمنين السيدة عائشة .

* * *
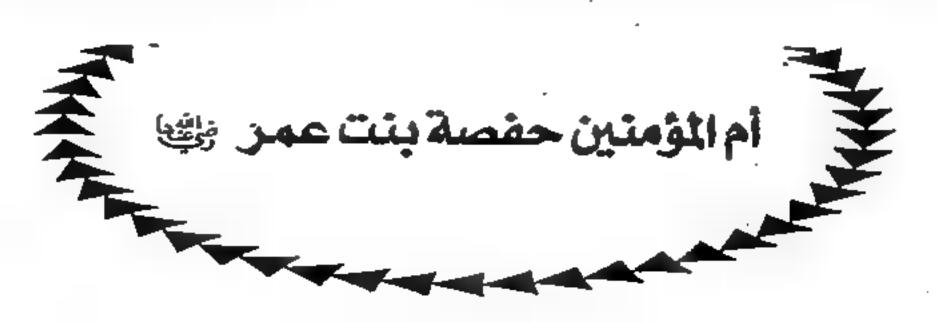
وفاة زوجها :

بقدر ما سعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما تزوج خنيس بن حذافة رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها كان حزنه لموته وفراق ابنته ، لقد رحب بها زوجًا لها لمن آنس فيه من كريم خُلُق وطيبة قلب ، وكان عمر رضي الله عنه ممن يحبون أن يطمئنوا على مصير بناتهم ، لذلك كانت مصيبته في وفاة خنيس رضي الله عنه أليمة ؛ فقد خسر زوجًا كريمًا لابنته وخسره مسلمًا شجاعًا قاتل ببسالة في معركة بدر ، وأصيبَ إصابة ظلت تؤلمه إلى أن لقي ربه شهيدًا كريمًا ، هذا فضلاً عن قلقه على مصير ابنته التي تواجه الحياة من جديد منفردة مترملة ..

عمر رضي الله عنه يعرض على عثمان رضي الله عنه أن يتزوجها فيرفض :

لقد كانت أحزان عمر رضي الله عنه تتضاعف ، وهو يرى ابنته الشابة وأحزانها وخسارتها لزوجها الذي كفل لها حياة كريمة مستقرة ، وكان كثيرًا ما يفكر في أيامها القادمة ، فيتمنى أن تمتد يد كريمة تطلبها فتنتشلها من أحزانها ، وتعالج ترملها ، وتخفف قلقه على أيامها القادمة . .

ولم يجد عمر رضي الله عنه عيبًا في أن يتقدم إلى مَن يستحسنه من الرجال كي يخطبها ، وإنها لسُنّة حسنة أن يتخير الرجل لابنته مَن يجده كفؤًا لها ، ولقد راح عمر رضي الله عنه يستعرض الرجال حوله كي يجد مَن يتناسب مع ابنته ويعاملها المعاملة الطيبة ويعاشرها المعاشرة الحسنة ويكفيها مؤنة العيش ، وفجأة مرّ بخاطره عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، إن الرجل في حاجة إلى زوجة حيث توفيت زوجته السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ وحفصة رضي الله عنها في حاجة إلى زوج بعد وفاة زوجها ، وعثمان رضي الله عنه رجل طيب وكريم ومن بيت عريق ، إنه حقًّا الرجل الذي يناسب حفصة . .

وبادر عمر رضي الله عنه بالذهاب إليه ، وحدّثه عارضًا عليه تزويجه إياها لكن الرجل انصرف عنه ، وقال : أنه ليس به إلى النساء حاجة خاصة بعد أن انقطعت صلة رحمه بالرسول ﷺ .

وأبو بكر رضي الله عنه يرفض :

ومرة أخرى راح عمر رضي الله عنه يفكر ، وأخذ يستعرض الرجال حوله علّه يجد مَن يناسب

حفصة ، وتذكَّرَ صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه ورأى أنه لا حرج في أن يَعرض عليه حفصة ، والعاقل مَن يخطب لابنته إذ هي أولَى بذلك من الابن . .

وبادر بالذهاب إليه وكلَّمه في شأن حفصة ، وردّ أبو بكر بالصمت - فهو لم يوافق ولم يعارض - وترك عمر في حيرة من أمره ، لكنها حيرة يشوبها الألم ، وتَضاعف الألم إذ هي المرة الثانية التي يَعرض ابنته على رجل ولا يجد استجابة .

الرسول ﷺ يتزوجها :

وكشأن كل الصحابة رضي الله عنهم لجأ إلى الصدر الحنون والقلب الكبير الذي يُبدِّد الهموم والأحزان ، لجأ إلى رسول الله ﷺ يبثه همَّه وأساه ،وكيف أن عثمان رفض ابنته ، وكيف أن أبا بكر رفض ابنته . .

ولم يكن عمر رضي الله عنه يتوقع ما سمعه من رسول الله ﷺ ، لقد أعلنه أنه يتزوج حفصة رضي الله عنها إذ يقول ﷺ : « **لَقَدْ زَوَّجَ اللهُ عُثْمَانَ خَيْراً مِنْ ابْنَتِكَ ، وَزَوَّجَ ابْنَتَكَ خَيْراً مِنْ عُثْمَانَ** » ، إذ أن عثمان رضي الله عنه يتزوج السيدة أم كلثوم رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ، بينما يتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر رضي الله عنهما . .

لقد رأى الرسول ﷺ أنه شرَّف أبا بكر رضي الله عنه بمصاهرته حيث تزوجَ ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها، ورأى أن يمنح هذا الشرف لعمر رضي الله عنه أيضًا ، وإذا بعمرالذي كان يبحث لابنته عن زوج يفاجأ بالزوج وبالشرف كله حيث انتسب إلى أشرف الخلْق ،وحيث تصير ابنته أم المؤمنين وزوجة ثالثة لرسول الله ﷺ بعد السيدة سودة بنت زمعة ، والسيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما . .

وتزوج الرسول ﷺ السيدة حفصة رضي الله عنها وسِنُّها يومئذ عشرون سنة على صداق قدره أربعمائة درهم .

لماذا رفض أبو بكر رضي الله عنه أن يتزوج حفصة رضي الله عنها ؟ :

ويلتقي عمر رضي الله عنه مع صديقه أبي بكر رضي الله عنه معاتبًا ، فيقول : عَرَضْتُ ابْنَتِي عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّان فَرَدَّنِي ، وَقَالَ : أَنَّه لاَ حَاجَةَ لَهُ فِي النِّسَاء بَعْدَ انْقِطَاعِ رَحِمه بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ عَرَضْتُهَا عَلَيْكَ يَا أخِي ، فَكَانَ مَوْقِفُكَ عَجِيبًا إِذْ سَكَتَّ وَلَمْ تجِبْ بِنَعَمٍ أَوْ لاَ ، فَكَانَ حُزْنِي لِسُكُوتِكَ أَضْعَافَ مَا سَبَّبَهُ عُثْمَانَ لِطَلَبِي . .

ويقول أبو بكر رضي الله عنه :أيْ أَخِي عُمَرُ . . الآنَ وَقَدْ دَخَلَتْ أُمُّ الْمُؤمِنِينَ حَفْصَةُ بَيْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلاَ بِهذَا قَدرُكَ وَشَرُفَتْ حَسَبًا وَنَسَبًا فَإِنِّي فِي حِلٍّ مِنَ الكَلاَمِ ، لَقَدْ

عَرَضْتَ عَلَيَّ ابْنَتَكَ وَأَنَا أَعْرَفُ النَّاسِ بِهَا وَبِكَ وَلَكِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَ لِي عَنِ ابْنَتِكَ شَيْئًا ، وَكَانَ هَذَا سِرًّا خَشِيتُ إِفْشَاءَهُ خَاصَّةً ،وَهُوَ سِرٌّ خَاصٌّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ .

في بيت النبوة

مزاح :

وفي بيت النبوة حيث الخير كله ساد الود ، والصفاء ، والتفاهم بين أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، وإن كان هناك تقارب أكبر بين السيدة عائشة والسيدة حفصة رضي الله عنهما حتى إن رسول الله ﷺ صحبهما سويًا في إحدى الغزوات رغم أنه لم يكن من عادته أن يصحب أكثر من زوجة . . .

ولقد كان التقارب بينهما سببًا في مزاح لطيف قاما به مع رسول الله ﷺ إذ كان يقترب من هودج عائشة رضي الله عنها أكثر ، فاتفقتا على أن تحلّ كل منهما في محل الأخرى، وظل رسول الله ﷺ يتابع هودج عائشة أكثر على أنها به ، ثم تبيَّن أن حفصة هي التي به ، فكان ضحكٌ بريء من الثلاثة .

الرسول ﷺ يعتزل النساء :

لكن بعد هذا المرح والضحك الجميل كان موقف آخر من سيدات بيت رسول الله ﷺ كانت حفصة بدايته ؛ إذ تصورتا أن يمكن لرسول الله ﷺ أن يدبر لأزواجه حياة أكثر يسرًا فأخذتا تطالبانه بالتوسعة في النفقة ، وتُلحّان في ذلك مما دفعه إلى أن يتخذ قراره باعتزال نسائه جميعًا . .

ثم جاء القرآن الكريم يخيرهنّ بين الله تعالى والرسول ﷺ وبين الحياة الدنيا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] ، فاختارت أمهات المؤمنين الله ورسوله ، ورضينَ بالحياة التي رضي عنها الرسول ﷺ على قسوتها وخشونتها . .

ويذهب عمر رضي الله عنه إلى ابنته ويسألها : يَا حَفْصَ . . أَتُجِرُّ إِحْدَاكُنَّ عَلَى مُغَاضَبَةِ رَسُولِ اللهِ حَتَّى اللَّيْلِ ؟!!

وتقول حفصة : نَعَمْ . .

فيغضب منها عمر ويحذرها أن تعود إلى ذلك أو تسأله ﷺ ما لا يطيق ، ولتسأل أباها ، فإن وجد ما يستطيع أن يعينها أعانها .

عتاب من السماء :

وتنعم حفصة ﵂ برضا ربها وطاعة زوجها رسول الله ﷺ ، لكن ذات يوم خرجت حفصة تزور أباها ، وحين رجعت وجدت الرسول ﷺ ومعه جاريته مارية في حجرتها ، وأراد ﷺ أن يرضيها ، فقال : أنه سيُحرِّم مارية على نفسه منذ اليوم ، وطلب منها ألاَّ تخبر غيرها من نسائه ، ولكن حفصة أخبرت عائشة .

ويبدو أن حفصة كانت تُكثِر مداعباتها حين تلتقي بعائشة إذ اتفقتا ذات يوم على الإدعاء بأن رسول الله ﷺ تنبعث منه رائحة غير زكية إذا خرج من عند أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂، فأيهما اتجه إليها رسول الله ﷺ تقول له ذلك ، والذي حدث أنه اتجه إلى بيت حفصة فادعت ذلك ، فأخبرها أنه شرب عسلاً عند زينب وما دام قد سبّب رائحة كريهة فلن يشربه ، وطلب منها أيضًا ألاَّ تخبر غيرها من زوجاته ﷺ ، لكنها فعلت . .

فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ ونزل الوحي يعتب على رسول الله ﷺ لأنه حرَّم ما أحل الله تعالى له ؛ يقول الله عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التحريم: ١] . .

كما يعتب على إفشاء الزوجات لسره ، فيقول : ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ [التحريم: ٣] .

ثم هددت الآيات السيدتين حفصة وعائشة كي لا يتظاهرا عليه مرة أخرى ، فكفّت الزوجتان عن مداعباتهما ومضايقاتهما هما وباقي أمهات المؤمنين ، وظللْن ينعمن بقرب الزوج الكريم ﷺ حتى اختاره الله تعالى لجواره الكريم .

تحفظ القرآن الكريم :

وعاشت السيدة حفصة ﵂ عابدة لله تعالى تنعم بذكريات الزوج الكريم ، والرفيق العظيم ﷺ ، وتنعم بذكريات صحبته الطاهرة لتؤدي بعد ذلك دوراً طيبًا في الحفاظ على كتاب الله الكريم الذي استودعه عمر ﵁ إياها إلى أن جاء عهد عثمان بن عفان ﵁ واختلفت قراءات الناس للقرآن الكريم ، فأمر عثمان ﵁ بإلغاء كل القراءات والكتابات

المخالفة للمصحف الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه واستودعه عمر رضي الله عنه عند حفصة رضي الله عنها ، وأحضر الوديعة الغالية من عند حفصة ، وتم إعداد مصحف عثمان الذي حفظ كلام الله تعالى ، وكان لحفصة رضي الله عنها شرف حفظ الأصل الذي تمت المراجعة عليه .

الرحيل :

وبعد حياة طيبة طاهرة انتقلت إلى جوار ربها في عام (٤٥ هـ) في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث صلى عليها والي المدينة مروان بن الحكم ، ومعه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه ، ودُفنت بالبقيع مع الكرام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله .

* * *

أم المؤمنين زينب ﷺ تزوجها السماء

أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ هي السيدة التي استعان بها الإسلام لتقرير مبادئه الجديدة في نفوس العرب ، تلك المبادئ السامية التي خالفت ما كان سائدًا في عصر الجاهلية ، ولقد أُضيرت السيدة زينب في نفسها فكافأها الإسلام وعوّضها عما عانت من أضرار نفسية ، لأنه في ظل الإسلام ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧].

أفكار جاهلية رغم الإسلام :

في المجتمعات القَبَلِية يعتز الناس بأنسابهم وأحسابهم وأصولهم ، ويبدو ذلك واضحًا بين العرب قبل الإسلام إلى الحد الذي لم يكن العربي يكتفي بهذا الاعتزاز ، وإنما يدفعه إلى النظر إلى الآخرين نظرة صِغار .

ورغم أن الإسلام علّم الناس أنهم لآدم عليه السلام ، وآدم عليه السلام من تراب ، وأنه لا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى ، فإنه كان يبدو في سلوك الكثيرين ما يدل على وجود بعض آثار تلك المبادئ في النفوس ، فتسمع عن صحابي يعيِّر آخر بقوله : يَا ابْنَ السَّوْدَاء ، وما إلى ذلك .

ولقد أبدت قريش دهشتها الشديدة حين رأت بلال بن رباح ﷺ فوق الكعبة يؤذّن للصلاة ؛ وسر دهشتها أنه في الأصل عبد وأسود ، ولقد طالبت قريش أن تُعامَل السيدة المخزومية معاملة خاصة فلا يُقام عليها الحد لأنها من أشرافها . .

ولقد لطم جبلة بن الأيهم رجلاً من عامة الناس لأنه داس على ردائه ، وذلك في الحرم وهو الرجل الشريف ، فلمّا قرر عمر بن الخطاب ﷺ أن يقيم عليه الحد بأن يضربه الرجل مثلما ضربه ، قال أمهِلْني إلى الغد . .

وفي الغد غادر جبلة بلاد العرب ، بل وغادر دينه وأهله لأنه لا يتحمل أن يكون كعامة الناس ، وهو - في ظنه واعتقاده - الشريف ابن الشرفاء . .

لم يكن الناس متساوين في تأثرهم النفسي بمبدأ المساواة ؛ ففي الوقت الذي يقول فيه العظيم عمر بن الخطاب ﷺ : أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا - يقصد بلال بن رباح ﷺ

عبد أمية بن خلف ـ نجد غيره لم يستطع أن يتقبل مبدأ المساواة بين العبيد والأحرار من الناحية النفسية ، أو من تأخر عنده هذا القبول والاقتناع .

زيد بن حارثة ﷺ يتزوج زينب ﷺ وهي كارهة :

ونعود إلى السيدة زينب ﷺ ، لقد كانت تمثل الأرستقراطية القرشية ، وشاء الله سبحانه أن تسهم في تحطيم مبدأ التمايز وإقرار مبدأ المساواة . .

لقد خطبها زيد بن حارثة ﷺ مولى رسول الله ﷺ وهو من الرقيق قبل أن يعتقه رسول الله ﷺ إذ كان أسير حرب غنمه بعض العرب في حروبهم وباعوه لحكيم بن حزام الذي وهبه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد ، والتي وهبته هي بعد ذلك لزوجها محمد ابن عبد الله ﷺ « وبعث رسول الله ﷺ فكان من أوائل المسلمين » وفي ظل الإسلام تتلاشى الفوارق « فحرر محمد ﷺ عبده من الرق ثم ألحقه بنفسه ، وجعله ابنًا له كعادة العرب في ذلك الحين ، وذلك بعد أن رفض أن يعود مع أبيه بعد أن عرفه وفضّل أن يبقى عبدًا لرسول الله ﷺ ، فكان ذلك من رسول الله ﷺ مكافأة له على وفائه وإخلاصه . .

ولازم زيد ﷺ رسول الله ﷺ ونال احترامه وتقديره وحبه ، فكان يقال له : زيد ابن محمد . . ويقال : زيد حِبُّ رسول الله ﷺ . .

وتشاء إرادة الله تعالى أن يطلب زيد يد زينب عقيلة بني هاشم وبنت عمة رسول الله ﷺ إذ اعتقد أنه واحد من بني هاشم ، ويتجه زيد إلى رسول الله ﷺ قائلاً : اخْطِبْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ الله . .

ويسأله رسول الله ﷺ عمّن يريدها ، فيقول : زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ يَا رَسُولَ الله . .

فيقول رسول الله ﷺ : « أَيْ زَيْدُ ..لَسْتُ أَرَاهَا تَقْبَلُ ، فَاخْطِبْ عَلَيَّ أُخْرَى أُزَوِّجْكَ بِهَا » . .

ولكن زيدًا يعود مرة أخرى إلى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه هذه المرة ـ وهو الآخر ابن خالها ـ يستعين به كي يخطب زينب ﷺ ،فيكلف رسول الله ﷺ عليًا أن يتوجه إليها ،فيذهب إليها لكنها تردّ عليه في مرارة وحزن : « يَا عَلِيُّ . . أَتَزَوَّجُ أَيِّمُ قُرَيْشٍ مِنْ عَبْدٍ رَقِيقٍ؟ » .

وعلم رسول الله فغضب لأن أهل رسول الله ما زالوا يعيشون بأفكار الجاهلية وعصبيتها ، فيتفاضلون بين الناس بأنسابهم وأحسابهم ، فأرسل إليها من يقول : « لَقَدْ

رَضِيتُهُ لَكُمْ ، وَأَقْضِي بِأَنْ تُنْكِحُوهُ » . .

فأنكحوه ، ونزل قول الله عز وجل مؤيدًا حكمه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾
[الأحزاب : ٣٦]

فقالت زينب وقال أهلها : رَضِينَا يَا رَسُولَ الله .

وقدّم لرسول الله ﷺ عشرة دنانير وإزارًا وخمسين مُدًا من الطعام وعشرة أمداد من التمر كي يكون صداقًا لزينب ، كما أولم الولائم وأطعم المساكين لحمًا وخبزًا .

طلاقها من زيد :

وعاشت زينب مع زيد مدة أحسّ خلالها زيد أنه مثلما رغب فيها ، فإنه الآن راغب عنها ويتمنى الخلاص منها ، وذلك لأن معاني الفخر بالأصول والاعتداد بالأنساب تعيش في أعماقها ،ولا تستطيع أن تنسى القرشية الشريفة ، وأن زيدًا الرقيق الغريب في قريش بلا نسب أو حسب . .

وطلب من رسول الله ﷺ أن يطلقها ، ويردّ رسول الله ﷺ :﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] . .

ويعود إلى رسول الله ﷺ بعد أيام يطلب أن يطلقها ، ويرد الرسول ﷺ :﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، ولكن زيدًا يطلق زوجته . .

وينزل الوحي من السماء يبيّن أن ما حدث كان مشيئة الله وتدبيره ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] . .

ولكن ما الذي أخفاه الرسول ﷺ وأبداه الله تعالى ؟

إنها مشيئة الله وحكمه وتدبيره في أن يتزوج الرسول ﷺ من زينب بعد طلاقها من زيد .

الله يُزوِّجها من رسول الله ﷺ :

يقول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧ ، ٣٨] .

حكمة إلهية :

لقد كان العرب في حاجة إلى هزة عنيفة كي ترسخ مبادئ الإسلام الجديدة « إن الابن بالتبنّي لا يكون ابنًا ولكنه دَعِيّ ، والدعي لا يكون له حقوق الابن الحقيقي ، فلا يحمل اسم مَن تَبنّاه ولا يَرِثه » ومَن تَبنّاه يتزوج امرأته إذا طلّقها . .

هذا المعنى الجديد لا يتحقق إلاّ بأن يعود زيد بن محمد إلى اسمه الحقيقي « زيد بن حارثة » » وتأكيدًا لذلك جاء أمر الله تعالى أن يتزوج سيدنا محمد ﷺ مطلّقة زيد ، لقد تحقق الهدف من هذا الزواج إذ قضى على الفوارق الطبقية والقَبلية » وقضى ثانيًا : بإبطال حقوق الأبناء الأدعياء التي رسّختها الجاهلية ، وما كان للعرب أن يتخلوا عن ذلك إلاّ من خلال ما حدث .

اعتزازها لأن الله تعالى زَوَّجها :

وكان لابدّ من ترضية زينب عمّا عانته من إرغامها على الزواج من زيد قبل أن تترسخ مبادئ الإسلام الجديدة » وبِقَدْرِ ما أُضيرت في نفسها لقد سَعِدَت بما تَحقق لها من ترضية حيث صارت زوجًا لرسول الله ﷺ وأمًّا للمؤمنين » بل كانت تفخر على زوجات الرسول ﷺ قائلة : لَقَدْ زَوَّجكُنَّ آبَاؤُكُنَّ وَأوْلِيَاؤُكُنَّ ، أَمَّا أنَا فَقَدْ زَوَّجَنِيَ اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ طِبَاق .

* * *

كبيشة بنت معن رضي الله عنها تنتصف للنساء

من عادات الجاهلية :

كان أهل المدينة في الجاهلية ، وفي أول الإسلام إذا مات الرجل ، وله امرأتان جاء أحد أقاربه ، فيضع ثوبه على امرأته ، وإذا كان له ابن من زوجة أخرى كان يبادر هو الآخر ويلقي ثوبه عليها ، ومعنى ذلك أنه : صار الأحق بها يتزوجها وبغير صداق ، ويعتبرون أن الصداق الذي تسلمته من زوجها الميت يكفى ، بل أحيانا كان هذا الابن أو القريب يزوجها إلى الغير ليأخذ صداقها لنفسه ، وربما آذاها وضايقها لتعطيه شيئًا مما تركه الميت تشتري به نفسها وحريتها ، وإن ماتت ورثها هو . .

شكوى إلى رسول الله ﷺ :

ولقد انتصفت كبيشة رضي الله عنها للنساء حين مات زوجها قيس بن الأسلت الأنصاري رضي الله عنه ، وكان له ابن من زوجة أخرى اسمه حصن ، فقام وطرح ثوبه على كبيشة بنت معن ليعلن أنه ورث نكاحها عن أبيه ، وتركها لا هو بالذي صار زوجًا ولا هو بالذي ينفق عليها ، وذلك حتى تبادر ، وتفتدي نفسها بمالها . .

وشعرت كبيشة أن هذا لا يمكن أن يرضى عنه الله ، ولا يتفق مع مبادئ الإسلام ، فذهبت إلى رسول الله ﷺ ، وقالت : يَا رَسُولَ اللهِ . . إنَّ قَيْسًا تُوُفِّي وَوَرِث ابْنُهُ نِكَاحِي، وَقَدْ أَخَّرَنِي وَطَوَّلَ عَلَيَّ ، فَلاَ يُنْفِقُ عَلَيَّ ، وَلاَ يَدْخُلُ بِي ، وَلاَ هُوَ يُخَلِّي سَبِيلِي . .

فقال لها رسول الله ﷺ : « اقْعُدِي فِي بَيْتِك حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله » . .

وعلمت نساء المدينة سيّما مَن توارث الغير نكاحهن بعد موت أزواجهن : إذ كان قد تزوج الأسود بن خلف امرأة أبيه ،وصفوان بن أمية تزوج امرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب ، وتزوج منصور بن ماذن امرأة أبيه مليكة بنت خارجة ، فذهبن إلى رسول الله

ﷺ قائلات : ما نحن إلا كهيئة كبيشة ؛ غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو العم . .

إنصاف من السماء :

فأنزل الله قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ١٩ ـ ٢٠].

* * *

النساء يرثن

عادات جاهلية :

توفي أوس بن ثابت الأنصاري ﷺ وترك زوجته أم كحة وثلاث بنات له منها ، ولم يترك ذكورًا ، فقام ابنا عمه سويد وعرفجة وأخذا المال دون أن يتركا للبنات اليتيمات شيئًا من مال أبيهن حسب عقيدة العرب التي تقول : لا يعطَى إلا مَن قاتلَ على ظهور الخيل وحاز الغنيمة .

شكوى إلى رسول الله ﷺ :

فقامت زوجته أم كحة وتوجهت إلى رسول الله ﷺ تشكو قائلة : يَا رَسُولَ اللهِ . . إِنَّ أَوْسَ بْنَ ثَابِتٍ قَدْ مَاتَ وَتَرَكَ لِي بَنَات ، وَأَنَا امْرَأَةٌ وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِنَّ ، وَقَدْ تَرَكَ أَبُوهُنَّ مَالاً حَسَنًا ، وَهُوَ عِنْدَ سُوَيْدٍ وَعُرْفُجَةَ ابْنَي عَمِّهِ ، وَلَمْ يُعْطِيَانِي وَلاَ بَنَاتِهِ شَيْئًا مِنَ المَالِ ، وَهُنَّ فِي حِجْرِي ، وَلاَ يُطْعِمَانِي وَلاَ يَسْقِيَانِي وَلاَ يَرْفَعَانِ لَهُنَّ رَأسًا .

إنصاف من السماء :

ودعاهما رسول الله ﷺ وسألهما عمّا يقولان في قول أم كحة ، فقالا : يَا رَسُولَ اللهِ . . وَلَدُهَا لاَ يَرْكَبُ فَرَسًا وَلاَ يَحْمِلُ كَلاً وَلاَ يُنْكِي عَدُوًا . .

فقال رسول الله ﷺ : « انْصَرِفُوا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُحْدِثُ اللهُ فِيهِنَّ » . .

وانصرفوا جميعًا ، ولم يطل الإنتظار ، فقد تنزّلت رحمه الله بالضعيفات حكمًا عدلاً يحقق لهن العدل والأمان ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ [النساء : ٧].

* * *

جميلة وثابت

زوجة كارهة :

عاش ثابت بن قيس رضي الله عنه مع زوجته جميلة بنت أبي سلول حياة عادية لا تشوبها عاطفة الحب ، ولا تكدرها عاطفة الكره ، حقًّا كان قصير القامة ، قبيح الوجه، شديد السواد لكن من حقه أن يتزوج ، وقد تزوج . .

ويبدو أن جميلة كانت تتألم في نفسها لقبحه ، وربماكانت تندب حظها ، لكنها لم تؤذِه بكلمة ، وربما كانت تتمنى لنفسها زوجًا أفضل ، وربما كانت تتمنى لنفسها الخلاص منه زمنًا ، ولكنها لم تُفصِح عن رغبتها .

شكوى إلى رسول الله ﷺ :

وذات يوم رأته وسط الرجال إذ كانت في خبائها ، فرفعت جانبه ولمحته قادمًا في جماعة من أصحابه ، وشاهدته معهم وأطالت النظر ، فأدركت كم هو دميم لَمَّا تأملت رفاقه . .

فسارعت إلى النبي ﷺ ، وقد رأت رأيًا واتخذت قرارًا إذ قالت بلهجة حازمة : لا يجمع رأسي ورأس ثابت شيء أبدًا . .

فقال ﷺ : « وَمَا تَكْرَهِينَ مِنْه؟ » . .

قالت : واللهِ مَا كَرِهْتُ منه دينًا ولا خلقًا ، إلا أنِّي كرهْتُ دمامته .

يريد ماله :

ولَمَّا علم ثابت بما قالت زوجته وأحسّ أنه خسر زوجته ، ولم يعدْ ممكنًا أن يجمعهما بيت إذ هي كارهة له ، وكيف يعيش مع مَن تكرهه ؟ . .

إذا كانت هي البداية البادئة بذلك ، فإن من حقه أن يطلب ماله لديها ، فقال لرسول الله ﷺ : « لَقَدْ أعطيتُها أفضلَ مالي ؛ حديقة ، فلْتردَّ عليَّ حديقتي » . .

وسألها رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولِينَ ؟ » . .

فقالت مسرعة : وإن شاء زدتُه .

رحمة الله سبحانه :

ورحم الخالق الذي خلق النفوس والطباع إذ يدرك سبحانه صعوبة أن تعيش زوجة كارهة لزوجها معه ، فخفف معاناة الزوج الذي خسر زوجة وخسر ماله ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٩].

* * *

خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها

الفرج
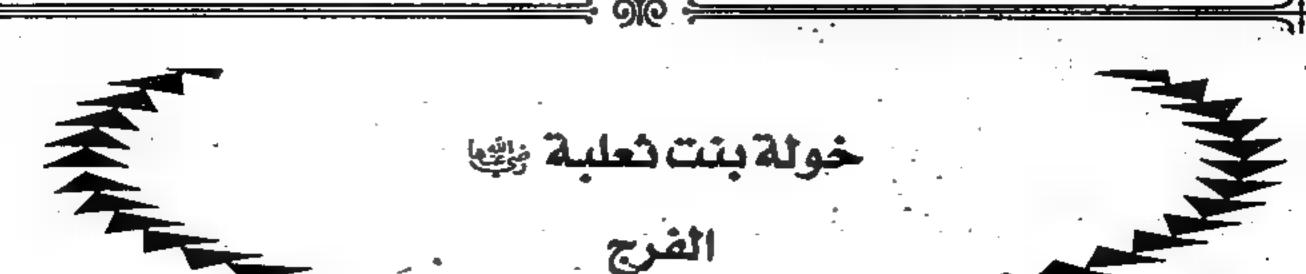
أول ظهار في الإسلام :

تضايق أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة ذات يوم إذ غاضبته فغاضبها وزاد غضبه ، وسرعان ما وجده ينطق : أنتِ عليَّ كظهر أمي . . وكان أول ظهار في الإسلام . .

وأفاق أوس بن الصامت من حدته وسكت عنه غضبه لكن ليحل مكانه في نفسه الألم والندم ، إذ صارت حليلته ورفيقة عمره وأم أطفاله امرأة غريبة عنه ولا تحل له ، ولم يَدْرِ ماذا يصنع ، إنه لحيائه مما فعل لم يستطع أن يحدِّث رسول الله ﷺ .

شكوى إلى رسول الله ﷺ :

أمَّا زوجته خولة ، فإنها لشعورها بهول ما حدث لجأت إلى رسول الله ﷺ ، وقالت له : يَا رَسُولَ الله . . أوسُ بنُ الصَّامت أَبُو وَلَدِي وأحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَقَدْ تَزَوَّجَنِي وأَنَا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْه ، شَابَّةً مَرغُوبَةً ذَاتَ مَال وأَهْلٍ ، دَخَل عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضبَ وَقَالَ : أَنْت عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مَالِي وأَفْنَى شَبَابِي ، وَتَفَرَّقَ أَهْلِي وَكَبُرَتْ سِنِّي ونثرت مِنْهُ بَطْنِي صِبيَةً صغَارًا ، إِنْ تَرَكْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا ، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا ، فَهَل تَجِدُ لِي يَا رسُول اللهِ رُخْصَةً تُنْعِشُنِي وَإِيَّاه ؟

جدال مع الرسول ﷺ ومناجاة لله تعالى :

ولكن رسول الله يقول : « مَا أَرَاكِ إِلاَّ قَدْ حُرِّمْت عَلَيْه » . .

كلمات تقطر أسى وتذوب لوعة ، ولكن رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقًّا . وأحيانًا يكون الحق له مرارة ، وتجادل المرأة الملتاعة رسول الله ﷺ : لا تَقُلْ ذلك يا رسول الله ، والذي أُنزِلَ عليك ما ذَكَرَ طلاقًا . .

لكن الرسول ﷺ يقول مرة ثانية : « مَا أراكِ إِلاَّ حُرِّمْتِ عَلَيْه » ثم يستطرد قائلاً : «وَإِن أُمِرتُ بشيء لاَ أُغَمِّمُهُ عَلَيْك » . .

ورغم أن الرسول ﷺ قد ظهر في حديثه في المرة الثانية ما يوحي بالأمل إلا أن خولة

الملتاعة لفداحة الخَطْب راحت تجادله من جديد ولما لم تجد حلاً - وإن كانت قد وجدت أملاً - رفعت بصرها إلى السماء وبسطت يديها وراحت تناجي ربها باكية : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُوا شِدَّةَ حَالِي وَوَحْدَتِي وَوَجْدِي وَمَا يَشُقُّ عَلَيهِ مِنْ فِرَاقِ أَوْيِ .. اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ فَرَجِي ..

الفرج من السماء :

وإذا بوجه رسول الله ﷺ يتربد من الوحي ، فتسكت خولة أو يُسكتها الحاضرون ، وإذا برسول الله ﷺ يتجه أول ما يتجه إليها مناديا : « أَبْشِرِي يَا خَوْلَةُ » ..

فقالت : خيرًا ..

وراح رسول الله ﷺ يتلو عليها ما تنزل من السماء ؛ إنها الكفّارة بأنواعها الثلاثة :

الأولى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وتقول خولة : واللهِ ما يجد غير رقبتي ..

والثانية : ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ قالت : واللهِ لولا أنه يأكل ، ويشرب في اليوم ثلاثًا لذهب بصره..

والثالثة : ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ ، فسألت : من أين ؟

فأرسل رسول الله ﷺ إلى أوس وسأله : « أَتَسْتَطِيعُ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ ؟» ..

قال أوس : واللهِ إنّي إذا أخطأني الأكل كل يوم مرارًا كَلَّ بصري .

قال ﷺ : ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ ..

فقال أوس : إلاّ أن تعينني .

فأعانه رسول الله ﷺ على إطعام الستين مسكينًا ..

وخرج الزوجان بعد أن فرّج الله تعالى كربتهما حين أنزل قوله الكريم ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ② وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن

يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[المجادلة : ١ ـ ٤]

وينصح رسول الله ﷺ خولة قائلاً : « يَا خَوْلَةُ .. إِنَّ ابْنَ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ » .

مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وتمتد الأيام بها ، وتدرك عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتلقاه ذات يوم فتستوقفه طويلا، ويعجب الصحابة حين يشاهدونه يدنو منها وينصت لها رغم أنها عطلته طويلا .

بل يبادر أحدهم ويقول: حبستَ رجالات قريش على هذه العجوز !!

فيقول عمر رضي الله عنه: وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ العَجُوزُ ؟! إِنَّهَا خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ الَّتِي سَمِعَ اللهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ، وَاللهِ لَوْ لَمْ تَنْصَرِفْ إِلَى اللَّيْلِ مَا انْصَرَفْتُ عَنْهَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا إِلاَّ أَنْ تَحْضُرَ صَلاَةٌ ، فَأُصَلِّيَهَا ثُمَّ أَرْجِعَ إِلَيْهَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا مِنِّي . .

رحم الله عمر ،ورحم الله خولة .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	■
رجال ارتبطت بهم الأحكام في حكايات:	٧
الإسلام والتبني . .زيد بن حارثة	٩
أول من تيمم . . الأسلع بن شريك	١١
اللعان . . هلال بن أمية	١٢
الظهار . .أوس بن الصامت	١٣
ميراث البنات . .أوس بن ثابت	١٥
لا يتزوج الابن زوجة أبيه . .أبو قيس بن الأسلت	١٧
المحرِم يؤدي الفدية ثم يحلق . .كعب بن عجرة	١٨
لا حرج على المرضى والفقراء . . عبد الله بن معقل	١٩
الزوجة الكارهة تعطي ما أخذت . . ثابت بن قيس	٢٠
إنما الأعمال بالنيات . . جندب بن خمرة	٢٢
المؤمن لا يقتل إلا خطأ . . عياش بن أبي ربيعة	٢٤
وأتوا البيوت من أبوابها . . قطبة بن عامر	٢٦
حكايات رجال آخرين من الآيات :	٢٧
أبو بكر	٢٧
القرآن الكريم يؤيد رأى عمر	٣٧
الإسلام يُحرِّم الخمر	٤٠
عمر يقترح الحجاب	٤٢
صدقتَ يا ربي	٤٣
حزب الله . . أبو بكر ـ عمر ـ أبو عبيدة	٤٤
لا تزر وازرة وزر أخرى . .عثمان	٤٥
المنفقون في سبيل الله . . أبو بكر ـ عبد الرحمن بن عوف	٤٦
كان ميتًا فأحياه الله . .حمزة بن عبد المطلب	٤٧

الإيمان في القلب . . عمّار بن ياسر ـــــ ٤٨
لا يترك دينه . . سعد بن مالك ـــــ ٤٩
الظّانُّون بالمؤمنين خيرا . . خالد بن سعيد ـــــ ٥٠
يصلي للكعبة . . البراء بن معرور ـــــ ٥١
الأنفال لله وللرسول . . سعد بن أبي وقاص ـــــ ٥٣
ما أحلَّه الله لا نُحرِّمه . . عبد الله بن رواحة ـــــ ٥٤
المؤمنون أحق بالولاية . . عبادة بن الصامت ـــــ ٥٥
تخفيف من الله . . قيس بن حرمة ـــــ ٥٦
الذي سفِه نفسه . . مهاجر بن أخي عبد الله بن سلام ـــــ ٥٧
لا يسخر قوم من قوم . . ثابت بن قيس ـــــ ٥٨
المعلقة . . ثابت بن يسار ـــــ ٥٩
الرجال قوّامون . . سعد بن الربيع ـــــ ٦٠
إنصاف اليتيمة . . جابر بن عبد الله ـــــ ٦١
الغرور . . عبد الله بن أبي السرح ـــــ ٦٢
الصادق . . كعب بن مالك ـــــ ٦٣
الرابح . . صهيب الرومي ـــــ ٦٨
الصادقون في عهدهم . . أنس بن النضير ـــــ ٦٩
آتاه الله خيرا مما أخذ منه . . العباس ـــــ ٧٠
وعادت جميلة إلى بيتها . . أبو البداح ـــــ ٧١
وعد الله سبحانه . . المقداد بن عمرو ـــــ ٧٢
الجهاد . . أبو أيوب الأنصاري ـــــ ٧٣
أعمى يجاهد . . عبد الله بن شريح « ابن أم مكتوم » ـــــ ٧٤
الطاعة . . عمّار بن ياسر ـــــ ٧٦
أمانة وخيانة . . ابن سلام وفنحاص ـــــ ٧٨
المطعمون لوجه الله . . علي بن أبي طالب ـــــ ٧٩
الشهادة حين الوصية . . تميم الداري ـــــ ٨٠
من مواقف اليهود : ـــــ ٨١
أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ . . عبد الله بن سلام ـــــ ٨٢

إسلام عبد الله بن سلام ـــــــ ٨٣
يعرف أساليبهم . . سعد بن عبادة ـــــــ ٨٤
خير اليهود . . مخيرق ـــــــ ٨٥
وفاة مسلم في أرض بعيدة . . النجاشي ـــــــ ٨٦
المودة في القربى . . مع الأنصار ـــــــ ٨٧
نحن في الآخرة مع مَن نحب . . ثوبان ـــــــ ٨٨
شهادة بشهادتين . . خزيمة بن ثابت ـــــــ ٨٩
أعطى واتقى . . أبو البداح ـــــــ ٩٠
التائب . . الحرث بن سويد ـــــــ ٩١
النادم . . أبو لبابة ـــــــ ٩٢
هفوة صحابي . . حاطب بن أبي بلتعة ـــــــ ٩٤
الخَيطان . . عدي بن حاتم ـــــــ ٩٦
اللامزون ـــــــ ٩٧
الذين يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي . . الأقرع بن حابس ـــــــ ٩٨
امتحن الله قلوبهم . . ثابت بن قيس ـــــــ ٩٩
صحابي وبيعة . . أبو سنان الأسدي ـــــــ ١٠٠
تقوى الله مخرج . . عوف بن مالك ـــــــ ١٠٢
الذين فاضت أعينهم بالدمع . . رهبان الحبشة ـــــــ ١٠٣
عتاب للنبي ﷺ . . ابن أم مكتوم ـــــــ ١٠٤
الذين يرجون رحمة الله سبحانه . . عبد الله بن جحش ـــــــ ١٠٥
شريف يتزوج أمَةً . . عبد الله بن رواحة ـــــــ ١٠٧
وكسب الإسلام رجلاً . . طلحة بن عبيد ـــــــ ١٠٨
نساء من آيات القرآن الكريم ـــــــ ١٠٩
حوّاء السيدة الأولى ـــــــ ١١٢
السيدة سارة أم الأنبياء ـــــــ ١١٥
السيدة هاجر أم اسماعيل ـــــــ ١١٨
آسية بنت مزاحم عليهما السلام ـــــــ ١٢٣
صفورة بنت شعيب زوجة موسى عليه السلام ـــــــ ١٢٨

بلقيس زوجة سليمان عليه السلام ـــــــ ١٣٣
مريم بنت عمران ـــــــ ١٣٨
أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـــــــ ١٤٣
أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها ـــــــ ١٤٧
أم المؤمنين زينب رضي الله عنها تُزوِّجها السماء ـــــــ ١٥٢
كبشة بنت معن رضي الله عنها تنتصف للنساء ـــــــ ١٥٦
النساء يرثن ـــــــ ١٥٨
جميلة وثابت ـــــــ ١٥٩
خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها الفرج ـــــــ ١٦١
الفهرس ـــــــ ١٦٥